



إدارة الشريعة والتأصيل

بمكة المكرمة

ومكة الحرة



قصة أصحاب الجنة وقيمة النية في الشريعة الإسلامية

تأليف

د. ياسين بن ناصر الخطيب

الأستاذ المشارك بقسم القضاء بجامعة أم القرى

السنة العشر

العدد (٢٠٤) العام ١٤٢٣ هـ

الملخص

اشتمل موضوع قصة أصحاب الجنة على أن الله تعالى قص علينا هذه القصة للموعظة والعبرة، وأن على الإنسان ألا يمنع حق الفقراء والمساكين في ماله، وبين البحث أن أهل مكة كانوا على علم بهذه القصة، وتبين أن أصحاب الجنة كانوا في الفترة بين عيسى ونبينا محمد ﷺ وأن الجنة كانت في أرض اليمن، وأن أولاد صاحب الجنة خالفوا سيرة أبيهم في إكرام الفقراء والمساكين وإعطائهم حقهم مما آتاهم الله تعالى.

كما بين البحث أن الفقهاء وفقهاء الحديث يجعلون للنية الأثر العظيم على العمل صلاحاً وفساداً إذا صاحبها عزم وتصميم، ودلل على ذلك بالأحاديث الكثيرة الصحيحة في هذا الأمر وبين البحث أن أصحاب الجنة لم يكونوا مجرد ناوين بل إنهم باشروا العمل وأقسموا ألا يدخلنها عليهم مسكين وساروا إلى جنتهم يتخافتون.

وبين البحث مثالين للنية وجزائها: فذكر الأعراب الذين أنفقوا ولكن منهم من أنفق وهم يرون أن هذه النفقة مغرمًا ويتربص بالمؤمنين الدوائر، ومنهم الذين أنفقوا وهم يريدون أن تكون نفقاتهم عند الله وصلوات الرسول ﷺ.

وكذلك بين البحث نوعين كل منهما بنى مسجداً، نوع بنى مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن

حارب الله ورسوله، ونوع بنى مسجداً على التقوى من
أول يوم.

وانتهى البحث إلى أن التوبة تمحو السيئات، وأن الله
تعالى بسبب توبة أصحاب الجنة ورجوعهم إلى الله تعالى
ورغبتهم فيما عنده أبدلهم خيراً منها.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد
لله رب العالمين.

المقدمة

حوى كتاب الله تعالى الكثير من الأمور التي تهم الفرد والمجتمع في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة، فهو كالبستان المثمر فيه ما لذ وطاب ينتقي منه الإنسان أطيب الثمار ، وأحلى الأزهار ، وكذلك القرآن الكريم يقرؤه المؤمن فيجد فيه القصص والعبر والأحكام والأمثال كما يجد فيه ذكر الجنة والنار ، وما أعد الله تعالى للمؤمنين والكفار ، والذي استوقفني من تلكم القصص والعبر ما جاء في سورة القلم أو سورة نون ، من الحديث عن أصحاب الجنة ، وما آل إليه أمرهم من بوار وخسارة ، حيث فقدوا أعز ما يملكون من حطام هذه الدنيا الفانية البستان الذي خلفه لهم أبوهم الصالح ، لكنهم لم يعرفوا قدر ما كان يعمله أبوهم وإنما تعاقدوا على الشر والحرمان فباءوا هم قبل غيرهم بذلك ﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم﴾ ١٩-٢٠ القلم.

فأردت أن لا تمر هذه القصة دون أن أنقلها إلى القارئ الكريم عل الله تعالى أن ينفع بها ، والله يتولانا بحفظه ، ويرعانا برعايته ويكلؤنا من كل سوء .

وقد أردت أن يكون هذا الموضوع مبدوءاً بقصة أصحاب الجنة وما يتعلق بها ، ثم أتكلم عن النية ، وعن

أثرها في الأحكام ، ولذلك جاء البحث في مقدمة وخمسة
فصول وخاتمة:

الفصل الأول: فيما يتعلق بسورة (ن)

والفصل الثاني: فيما يتعلق بأصحاب الجنة .

والفصل الثالث: فيما يتعلق بالنية من أحكام .

والفصل الرابع: في مثالين من القرآن الكريم على
المؤاخذه على النية .

والفصل الخامس : في نتيجة الندم الذي ندمه أصحاب الجنة.
والخاتمة.

والله الموفق للهدى والداعي إلى الرشاد .

الفصل الأول : فيما يتعلق بسورة (ن) .

وفيه تمهيد وسبعة مباحث

التمهيد:

ذكر الله تعالى قصة أصحاب الجنة في سورة (ن)
وتسمى سورة القلم
وسأتكلم شيئاً عن هذه السورة قبل الكلام عن القصة،
وفي البداية نعرض آيات القصة من القرآن الكريم .

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا
مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَنْوُونَ (١٨) فُطَّافٌ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ
نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنْ
اغْدُوا عَلَيَّ حَرْثَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ
(٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ (٢٤) وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ
قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ
(٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ
رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ (٣٠)
قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَى رَبَّنَا أَنْ يَدُلَّنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا
إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾

المبحث الأول : عدد آيات سورة (ن)

اتفق المفسرون على أن سورة (ن) تتكون من (٥٢) اثنتين وخمسين آية، ليس فيهم مخالف^(١)

المبحث الثاني : أين نزلت سورة (ن) ؟

اتفق المفسرون على أن أول سورة (ن) إلى الآية (١٦) ﴿سنسمة على الخرطوم﴾ ومن الآية (١٧) ﴿إنا بلوناهم﴾ إلى الآية (٣٤) ﴿لو كانوا يعلمون﴾ والآيتان آخر السورة ، كل ذلك نزل في مكة ،

ثم اختلفوا هل نزل الباقي ، أي نزلت سورة (ن) كلها في مكة أو أن فيها ما نزل بالمدينة ؟ إلى ثلاثة أقوال :

١- القول الأول : سورة (ن) كلها مكية^(٢) ، قال ذلك الحسن^(٣) وعكرمة^(٤) .

(١) تفسير الطبري ١٣/٢٩ . تفسير البيضاوي ٣٦٨/٥ . تفسير البغوي ٤/٣٧٤ . تفسير الشوكاني = فتح القدير للشوكاني ٥/٢٦٦ . وروح المعاني للألوسي ٢٩/٢٣٠ .

(٢) تفسير البيضاوي ٣٦٨/٥ . تفسير الطبري ١٣/٢٩ . تفسير الثعالبي ٤/٤٣٧ وهي مكية بالإجماع . الناسخ والمنسوخ للمقري ١/٢٠١ وهي من أول تنزيل القرآن على قول الأكثرين ، كلها محكم ليس فيها ناسخ ومنسوخ .

(٣) الحسن البصري ٢١-١١٠هـ

الحسن بن يسار البصري ، أبو سعيد تابعي ، كان جبر الأمة في زمانه ، وأحد الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك ، شب في كنف علي بن أبي طالب .

تقريب التهذيب لابن حجر ١/١٦٥ ترجمة ٢٦٣ . حلية الأولياء ٢/١٣١ . ترجمة ١٦٩ .

(٤) عكرمة ٢٥-١٠٥هـ

عكرمة بن عبد الله البربري المدني أبو عبد الله ، مولى ابن عباس ، تابعي من أعلم الناس بالتفسير والمغازي

تهذيب التهذيب لابن حجر ١٣/١٦٣-١٨١ ترجمة ٤٥٩٣ . حلية الأولياء للأصفهاني ٣/٢٣٦ ترجمة ٢٤٥ .

وعطاء^(١) وجابر^(٢)، وابن حزم الأندلسي^(٣) وأخرج
النحاس^(٤) وابن مردويه^(٥) والبيهقي^(٦) عن ابن عباس^(٧)
قال : نزلت سورة نون بمكة^(٨) ، وأخرج ابن مردويه عن

(١) عطاء ٢٧-١١٤هـ

عطاء بن أبي رباح = عطاء بن أسلم بن صفوان أبو محمد ، تابعي من أجلاء الفقهاء ، قدم ابن عمر مكة فقال : تجمعون لي يا أهل مكة المسائل وفيكم ابن أبي رباح ١٤
صفة الصفوة لابن الجوزي ١٢٥/٢ - ١٢٧ . تقريب التهذيب لابن حجر ٢٢/١ ترجمة ١٩٠ .

(٢) جابر ت. بعد عام ٧٠هـ

جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري ، ثم السلمي ، صحابي غزا (١٩) تسع عشرة غزوة ، ومات بالمدينة ، وعمره أربع وتسعون سنة .

الإصابة لابن حجر ٢١٣/١ ترجمة ١٠٢٦ . تقريب التهذيب لابن حجر ١٢٢/١ ترجمة ٩ .

(٣) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني ٢٦٦/٥ . وانظر الدر المنثور للسيوطي ٢٤٠/٨ . والناسخ والمنسوخ للكرمي ٢١٢/١ ، تفسير البغوي ٢٧٤/٤ . الناسخ والمنسوخ لابن حزم ٦٦/١ .

وابن حزم ٢٨٤-٤٥٦هـ

هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي الأندلسي القرطبي ، فقيه ، أصولي محدث ، حافظ ، مصنف الإيصال إلى فهم الخصال ، والمحلى بالآثار .

تذكرة الحفاظ للذهبي ٣/ ٣٢١-٣٢٩ . البداية والنهاية لابن كثير ٩١/١٢ - ٩٢ .

(٤) النحاس ت. ٣٣٨هـ

أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي ، أبو جعفر النحاس ، مفسر أديب ، كان من نظراء نبطويه وابن الأنباري ، له تفسير القرآن ، وإعراب القرآن ، ومعاني القرآن ،

النجوم الزاهرة ٣/ ٣٠ . والبداية والنهاية لابن كثير ٢٢٢/١١ .

(٥) ابن مردويه ٣٢٣-٤١٠هـ

أحمد بن موسى بن مردويه الأصبهاني ، أبو بكر ، حافظ ، مؤرخ ، مفسر ، له كتاب التأريخ ، وتفسير القرآن ، ومستخرج في الحديث .

شذرات الذهب لابن العماد ٣/ ١٩٠ . طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٤١٢ ترجمة ٩٣٠ .

(٦) البيهقي ٣٨٤-٤٥٨هـ

أحمد بن الحسين بن علي ، من أئمة الحديث ، نصر المذهب الشافعي ، وبسط موجهه ، وأيد آراءه ، كان عارفا بالعلوم ، عارفا بالاختلاف

شذرات الذهب لابن العماد ٣/ ٣٠٤ . وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٠/١ .

(٧) ابن عباس ق. ٦٨ - .

عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، الهاشمي ، القرشي ، أبو العباس ابن عم رسول الله () ولد بالشعب . الإصابة لابن حجر ٢/ ٣٣٠-٣٣٤ ترجمة ٤٧٨١ . الاستيعاب لابن عبد البر ٢/ ٣٥٠ - ٣٥٧ .

(٨) بلد الله الحرام ، أعرف من أن تعرف .

عائشة^(١) مثله^(٢)

٢- القول الثاني : عن ابن عباس وقتادة^(٣) أنها من أولها إلى قوله تعالى ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ مكي ، ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى ﴿ من الصالحين ﴾ مدني^(٤)
٣- القول الثالث : قال أبو السعود^(٥) : إن المدني منها موضعان :

من الآية (١٧) ﴿ إنا بلوناهم ﴾ إلى الآية (٣٣) ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ .

(١) عائشة الصديقة ٩ق هـ . - ٥٨هـ

عائشة بنت أبي بكر الصديق ، أم عبد الله ، قرشية ، أفضه نساء المسلمين ، وأعلمهن بالدين والأدب .

الإصابة لابن حجر ٤/٣٥٩-٣٦١ . طبقات ابن سعد ٨/ ٣٩ .

(٢) فتح القدير = تفسير الشوكاني ٥/ ٢٦٦ .

(٣) قتادة ٦١- ١١٨هـ

قتادة بن دعامة بن عزيز ، أبو الخطاب ، السدوسي ، البصري ، مفسر ، حافظ ، كان أحفظ أهل البصرة ، وكان رأساً بالعربية ، ومفردات اللغة ، وأيام العرب والنسب طبقات الحفاظ للسيوطي ١١٥ ترجمة ١٠٤ تقريب التهذيب لابن حجر ٢/ ١٢٣ ترجمة ٨١ .

(٤) فتح القدير للشوكاني = تفسير الشوكاني ٥/ ٢٦٦ وروح المعاني للآلوسي ٢٩/ ٢٣ .

(٥) أبو السعود ٨٩٨- ٩٨٢هـ

محمد بن محمد بن مصطفى العمادي ، المولى أبو السعود ، مفسر ، شاعر ، له تفسير سماه إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، وتحفة الطلاب في المناظرة ، دفن جنب أبي أيوب الأنصاري .

شذرات الذهب لابن العماد ٨/ ٣٩٨ . الفوائد البهية ص ٨١

ومن الآية (٤٨) ﴿فاصبر لحكم ربك﴾ إلى الآية (٥٠) ﴿فجعله من الصالحين﴾ .

(قلت) : و الباحث ليس لديه ما يرجح به واحداً من هذه الأقوال ، لكن كل الكلام الذي يأتي يرجح أنها مكية ، خاصة وأن نزولها كان مع أوائل السور المكية . والله أعلم .

المبحث الثالث : متى نزلت سورة (ن) ؟

نزلت سورة (ن) بعد سورة العلق ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾

أخرج ابن الضريس^(١) عن ابن عباس قال : كانت إذا نزلت سورة بمكة كتبت بمكة ، ثم يزيد الله فيها ما يشاء ، وكان أول ما نزل القرآن ﴿اقرأ باسم ربك﴾ ثم نون ، ثم المزمل ، ثم المدثر .

وأخرج النحاس وابن مردويه والبيهقي عنه قال : نزلت سورة نون بمكة ، وأخرج ابن مردويه عن عائشة مثله^(٢) ويرى الأستاذ سيد قطب^(٣) - رحمه الله تعالى - رأياً

(١) ابن الضريس ٢٠٠-٢٩٤هـ

محمد بن أيوب بن يحيى بن الريس البجلي الرازي ، أبو عبد الله ، من حفاظ الحديث ، له كتاب فضائل القرآن

تذكرة الحفاظ للذهبي ١٩٥/٢ ، علوم القرآن ٤٢٢ .

(٢) فتح القدير = تفسير الشوكاني ٢٦٦/٥ . الناسخ والمنسوخ للمقري : قال : من أول تنزيل القرآن على قول الأكثرين . وروح المعاني للأوسى ٢٩/٢٣ .

(٣) سيد قطب ١٣٢٤-١٣٨٧هـ .

سيد قطب بن إبراهيم مفكر إسلامي مصري ، من مواليد قرية (موشا) في أسيوط ، عمل في جريدة الأهرام ، وكتب في مجلتي الرسالة والثقافة ، كان يريد تغيير المناهج لتكون إسلامية ، انظر إلى الإخوان المسلمين ، وسجن فعكف على التأليف ، له : في ظلال القرآن تفسير ، والعدالة الاجتماعية في الإسلام وغيرها كثير ، وأعدم شنقاً سنة ١٩٦٦م .

مجلة العرب ١٥٩/٨ ، جريدة أخبار اليوم ١٩٦٥/٩/١١م

آخر ، فهو يقول - بعد كلام طويل : والذي نرجحه بشأن
السورة كلها أنها ليست الثانية في ترتيب النزول ، وأنها
نزلت بعد فترة من البعثة النبوية ، بعد أمر النبي (بالدعوة
العامّة ، وبعد قول الله تعالى له ﴿وأنذر عشيرتك
الأقربين﴾ وبعد نزول طائفة من القرآن فيها شيء من
قصص الأولين وأخبارهم ، التي قال عنها قائلهم
﴿أساطير الأولين﴾ وبعدها أصبحت قريش مدعوة إلى
الإسلام كافة ، وأصبحت تدفع هذه الدعوة بالإتهامات
الباطلة ، والحرب العنيفة التي اقتضت تلك الحملة العنيفة
الواردة في السورة على المكذبين ، والتهديد القاصم من
أولها وفي آخرها على السواء ، والمشهد الأخير في السورة
يؤحي بذلك ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم
لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ﴾ ... ثم يقول :

وهكذا تتضافر الشواهد على أن هذه السورة نزلت
متأخرة عن أيام الدعوة الأولى ، وأن هناك ثلاث سنوات
على الأقل بين بدء الدعوة وبين نزولها ، ولا يعقل أن ثلاث
سنوات مرت لم ينزل فيها قرآن ... ولكن هذا لا ينفي أن
تكون هذه السورة ، وسورتا المدثر والمزمل قد نزلت في
الفترة الأولى من الدعوة ^(١)

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/ ٣٦٥١

المبحث الرابع : هل فيها ناسخ ^(١) ومنسوخ ؟

اختلف المفسرون في ذلك على قولين :

١- فقال ابن حزم والمقري ^(٢) : ليس فيها ناسخ ومنسوخ ،

٢- وقال الكرمي ^(٣) : فيها من المنسوخ على ما زعم بعضهم آيتان :

قوله تعالى: ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث

سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ (٤٤) منسوخة بآية

السيف وقوله تعالى: ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب

الحوت إذ نادى وهو مكظوم﴾ (٤٨) نسخت بآية السيف ^(٤)

(قلت): الصحيح أنها ليست منسوخة. والله أعلم .

١) قال أبو بكر الهمداني : وقد أطبق المتأخرون على ما ذكره القاضي : أنه الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم على وجه لولاه لكان ثابتاً به مع تراخيه عنه . قال الهمداني : وهذا حَدٌّ صحيح ، وذكر أنه قد عرف النسخ بأنه انتهاء مدة العبادة ، وقيل بيان انقضاء مدة العبادة التي ظاهرها الدوام ، وقال بعضهم : إنه رفع الحكم بعد ثبوته . الاعتبار في النسخ والمنسوخ من الآثار للهمداني ص ٨.

٢) المقري ت. سنة ٧٥٨هـ

محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر ، أبو عبد الله القرشي التلمساني من الفقهاء الأدباء من المالكية له القواعد في الفقه ، والحقائق والرقائق ، وغيرها .

شذرات الذهب لابن العماد ٦/١٩٣ - ١٩٦ . شجرة النور الزكية لمحمد بن محمد مخلوف ٢٣٢ .

٣) الكرمي ت. ١٠٣٢هـ

مرعي بن يوسف بن أبي بكر الكرمي المقدسي الحنبلي ، محدث ، فقيه ، مؤرخ ، أديب ، أحد أكابر علماء الحنابلة له دليل الطالب لنيل المطالب فقه حنبلي ، أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات .

خلاصة الأثر للمحبي ٤/٣٥٨ - ٣٦١ . هدية العارفين للبغداد ٢/ ٤٢٦ - ٤٢٧ .

٤) الناسخ والمنسوخ لابن حزم ١/٦٦ . والناسخ والمنسوخ للمقري ١/٢٠١ . والناسخ والمنسوخ للكرمي ١/٢١٢ .

المبحث الخامس :ترتيب عدد سورة (ن) في القرآن الكريم؛

جاء في ترقيم المصاحف أن سورة القلم هي السورة الثامنة والستون (٦٨) في ترتيب سور القرآن الكريم .

المبحث السادس :ترتيب سورة (ن) في القرآن الكريم؛

تأتي سورة (ن) بعد سورة الملك ، والمناسبة في ذلك ، هي أن الله تعالى ختم سورة الملك بالوعيد ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين﴾ وافتتاح هذه أي سورة (ن) به ﴿فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون﴾

وقال الجلال السيوطي^(١) في ذلك : لما ذكر في آخر الملك التهديد بتغوير الماء ، استظهر عليه في هذه بإذهاب ثمر أصحاب الجنة في ليلة بطائف طاف عليهم وهم نائمون ، فأصبحوا ولم يجدوا له أثراً ، حتى ظنوا أنهم ضلوا الطريق ، وإذا كان هذا في الثمار - وهي أجرام كثيفة - فالماء الذي هو لطيف أقرب إلى الإذهاب ، ولهذا قال سبحانه هنا ﴿وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم﴾ وقال - جل وعلا - هناك ﴿إن أصبح ماؤكم غوراً﴾ إشارة إلى أنه يسري عليه في ليلة ، كما أسري على الثمر في ليلة . انتهى . ولا يخلو عن حسن^(٢)

(١) السيوطي ٨٤٩-٩١١هـ

عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخيري جلال الدين إمام حافظ مؤرخ أديب له نحو من (٦٠٠) مؤلف منها الإتقان في علوم القرآن ، وإتمام الدراية لقراء النقاية .

شذرات الذهب لابن العماد ٥١/٨ . الضوء اللامع ٦٥/٤ .

(٢) روح المعاني للآلوسي ٢٩/٢٢-٢٣ .

الفصل الثاني : فيما يتعلق بقصة أصحاب الجنة:

في هذا الفصل أحد عشر مبحثاً ، كما يلي :

المبحث الأول: مناسبة قصة أصحاب الجنة مع ما قبلها في سورة(ن)
لما قال الله تعالى عن الوليد بن المغيرة ^(١) ﴿أَنْ كَانَ ذَا
مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ عقب
على ذلك بقصة أصحاب الجنة الذين كانوا معروفين
عندهم على ما يبدو ، شائع بينهم ذكرهم ، يذكرهم فيها
بعاقبة البطر بالنعمة ، ومنع الخير ، والاعتداء على حقوق
الآخرين ، ويشعرهم أن ما بأيديهم من نعم المال والبنين
إنما هو ابتلاء لهم كما ابتلى أصحاب هذه القصة. ^(٢)

المبحث الثاني : من أي قوم أشخاص هذه القصة:

هل هم من المسلمين أو من غيرهم وما هي ديارهم ؟

اختلف المفسرون في ذلك على أقوال :

١- هم من أهل الكتاب ^(٣) كانوا مستمسكين بشرائع الإنجيل ^(٤)

(١) الوليد بن المغيرة ٩٥ ق.هـ - ١١٠ هـ

الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، أبو عبد شمس ، من قضاة العرب في
الجاهلية ، ومن زعماء قريش ، ومن زنادقتها ، حرم الخمر على نفسه في الجاهلية ، أدرك
الإسلام وهو شيخ هرم فعاداه وقاومه ، وهو والد خالد بن الوليد .

الكامل لابن الأثير ٢/٢٦ . اليعقوبي ١/٢١٥ .

(٢) انظر في ظلال القرآن سيد قطب ٦/ ٣٦٦٤ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٠٨ .

(٤) البدء والتأريخ ٣/ ١٣١ . زاد المسير ٨/ ٣٣٥ . كانوا مؤمنين وذلك بعد عيسى بن مريم .
الدر المنثور ٨/ ٢٥٠ كانوا من أهل الكتاب ، الدر المنثور ٨/ ٢٥٠ . أخرج عن ابن عباس : أنهم
كانوا من أهل الكتاب ، وعن قتادة أنهم من بني إسرائيل ،

- ٢- هم من المسلمين^(١) (قلت) لعله يريد أنهم من المؤمنين بعيسى عليه السلام لما سيأتي عند القرطبي قريباً .
- ٣- قوم من أهل الصلاة^(٢) .
- ٤- من الحضارمة^(٣) .
- ٥- من أهل الفترة^(٤) .
- ٦- هم من ثقيف^(٥) .
- ٧- هم من الحبشة^(٦)

(قلت) : يمكن الجمع بين هذه الأقوال بأن أصحاب الجنة كانوا باليمن ، وكانت اليمن تابعة - في ذلك الوقت - للحبشة ، بدليل أن إبرهة الذي أراد هدم الكعبة المشرفة كان باليمن من قبل ملك الحبشة . والله أعلم .

(١) نقله الشوكاني في تفسيره ٥/ ٢٧١ عن الواحدي .

(٢) تفسير أبي السعود ٩/ ١٤ . تفسير البغوي ٤/ ٣٧٩ .

(٣) معجم البلدان ٣/ ٤٣٣ .

والحضرمة : جمع حضرمي ، نسبة إلى حضرموت : وهي بلدة من اليمن قرب عدن ، ينسب إليها حضرمي . المصباح المنير للفيومي ١/ ١٥٢ .

(٤) البدء والتأريخ ٣/ ١٣١ . والفترة : ما بين الرسولين من رسل الله تعالى من الزمان الذي انقطعت فيه الرسالة . النهاية في غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير ٣/ ٤٠٨ مادة (فتر) .

(٥) تفسير الشوكاني ٥/ ٢٧١ قوم من ثقيف كانوا باليمن مسلمين . اهـ . وثقيف : حي باليمن والنسبة إليه ثقفى بفتح التين ، المصباح المنير للفيومي ١/ ٩١ ، مادة (ثقف) وهم الآن قبيلة كبيرة في الطائف وغيرها ، في المملكة العربية السعودية

(٦) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٠٧ . والحبشة : هي بلاد تقع في الشمال الشرقي من أفريقيا ، وبها أراض مرتفعة ، ووديان عميقة ، يزرع فيها البن والحبوب والفاكهة ، ومنها ينبع النيل الأزرق الذي يسبب فيضان نيل مصر . دائرة المعارف للناشئين ، ١٢٤

المبحث الثالث : زمان القصة :

لم تبين المصادر التي ذكرت القصة زماناً محدداً وقعت فيه أحداثها ، لكن القرطبي^(١) قال : وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى عليه السلام بقليل^(٢) .

المبحث الرابع : مكان القصة :

اتفق المفسرون على أن مسرح القصة كان في اليمن ، في قرية يقال لها ضَرَوَان^(٣) أو صَوْرَان^(٤) وعليه أكثر المفسرين . (قلت): وهو الصحيح حسب ما ذكر في معجم البلدان . وقيل : هم من الحبشة^(٥) . . والله أعلم . (قلت): ولا تعارض كما بينا .

(١) القرطبي ت. ٦٧١هـ

محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي ، أبو عبد الله القرطبي ، من كبار المفسرين ومن عباد الله الصالحين والعلماء العارفين . الديباج المذهب لابن فرحون ص ٣١٧ ، نفح الطيب ١ / ٤٢٨ . وانظر مقدمة الجامع لأحكام القرآن ، رقم و - ز .

(٢) تفسير القرطبي ٢٣٩ / ١٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤ / ٤٠٧ ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن ، قال سعيد بن جبير : كانوا من قرية يقال لها ضروران ، على ستة أميال من صنعاء . تفسير الشوكاني ٥ / ٢٧١ : على فرسخين من صنعاء . البدء والتأريخ ٣ / ١٢١ : أصحاب ضروران ، وهي جنة كانت بصنعاء .

وفي معجم البلدان لياقوت الحموي ٣ / ٥١٨ قال ضَرَوَان : بالتحريك وآخره نون : بليد قرب صنعاء سمي باسم واد هو على طرفه ، وذلك الوادي هو مستطيل ، هذه المدينة في طرفه من جهة صنعاء اهـ . وأما صوران فقد قال في معجم البلدان : قرية للحضارمة باليمن بينها وبين صنعاء اثنا عشر ميلا ، خرجت منه نار ، فثارت الحجارة وعروق الشجر حتى أحرقت الجنة التي ذكرت في القرآن المجيد .

(٤) معجم البلدان ٣ / ٩١ . الصَّوْرَان : قرية للحضارمة باليمن بينه وبين صنعاء اثنا عشر ميلا ، خرجت منه نار ، فثارت الحجارة وعروق الشجر حتى أحرقت الجنة التي ذكرت في القرآن المجيد .

(٥) تفسير ابن كثير ٤ / ٤٠٧ .

المبحث الخامس : عدد أولاد صاحب الجنة:

لم يذكر أغلب المفسرين عدد الأولاد الذين ورثوا الجنة عن أبيهم ، وشاركوا في القصة ، لكن صاحب زاد المسير حدد عددهم ، وقال : إنهم ثلاثة ^(١) وكذلك نقل القرطبي عن ابن عباس أنهم ثلاثة ^(٢) .

والمفهوم من كلام البيضاوي ^(٣) في تفسيره أنهم أكثر من ثلاثة ، فقد قال - عند كلامه عن تلاوم أصحاب الجنة: فإن منهم من أشار بذلك - يعني حرمان الفقراء - ومنهم من استصوبه ، ومنهم من سكت ، ومنهم من أنكره ^(٤) وكذلك نقل القرطبي عن ابن عباس أنهم ثلاثة

(قلت): الأولى عدم القطع بعدد محدد إلا بدليل شرعي صحيح . والله أعلم.

(١) زاد المسير ٨ / ٣٣٥ . تفسير البغوي ٤ / ٢٧٩ .

(٢) تفسير القرطبي ١٨ / ٢٤٠ .

(٣) البيضاوي ت. سنة ٦٨٥ هـ

عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي ، أبو سعيد ، ناصر الدين ، البيضاوي ، قاض مفسر علامة له تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ولب اللباب في علم الإعراب .

البداية والنهاية لابن كثير ١٣ / ٣٠٩ . بغية الوعاة ٢٨٦ .

(٤) تفسير البيضاوي ٥ / ٣٧٣ . تفسير أبي السعود ٩ / ١٤ . تفسير الواحدي ٢ / ١١٢٢ .

المبحث السادس : ماذا كان يفعل صاحب الجنة في جنته:

اتفقت آراء المفسرين على أن صاحب الجنة كان يؤدي حق الله تعالى فيها ، وإن اختلفت عباراتهم في التعبير عن ذلك ، وإليك عباراتهم :

قال الطبري^(١) : كانت الجنة لشيخ ، وكان يتصدق ، فكان بنوه ينهونه عن الصدقة ، وكان يمسك قوت سنته وينفق ويتصدق بالفضل اهـ^(٢)

وقال البيضاوي: الجنة : يريد البستان الذي كان دون صنعاء^(٣) بفرسخين^(٤) ، وكان لرجل صالح ، وكان ينادي الفقراء وقت الصرام ، ويترك لهم ما أخطأه المنجل ، وألقته الريح ، أو بعد من البساط الذي يبسط تحت النخلة، فيجتمع لهم شيء كثير اهـ^(٥)

وقال القرطبي : عن السدي^(٦) قال : وكان أبوهم رجلا

(١) الطبري ٢٢٤ - ٣١٠ هـ

محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، أبو جعفر : المؤرخ المفسر الإمام ، عرض عليه القضاء فامتنع ، والمظالم فأبى. له: أخبار الرسل والملوك يعرف بتاريخ الطبري ، وجامع البيان في تفسير القرآن ، واختلاف الفقهاء .

تذكرة الحفاظ ٣٥١/٢ . البداية والنهاية لابن كثير ١٤٥/١١ .

(٢) تفسير الطبري ٢٩/٢٩ .

(٣) صنعاء : عاصمة اليمن ، وسميت باسم الذي بناها وهو صنعاء بن أزال بن عبيد ، وقيل لأن صنعتها متقنة ، (قلت) على حد قوله تعالى صنع الله . معجم البلدان ٤٨٤/٣ .

(٤) الفرسخ = ٥٥٤٤ مترًا ، الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان، لابن الرفعة الأنصاري تحقيق د/محمد أحمد إسماعيل الخاروف ص٧٧ .

(٥) تفسير البيضاوي ٣٧١/٥ . وينحوه في تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤ .

(٦) السدي ت. سنة ١٢٨ هـ

إسماعيل بن عبد الرحمن ، تابعي ، حجازي سكن الكوفة ، كان إماما عارفا بالوقائع وأيام الناس النجوم الزاهرة ٣٠٨/١ . واللباب ٥٣٧ /١ .

صالحاً ، وكان إذا بلغ ثماره ، أتاه المساكين ، فلم يمنعهم من دخولها ، وأن يأكلوا منها ، وأن يتزودوا .

وقال ابن عباس : كانت تلك الجنة دون صنعاء بفرسخين ، غرسها رجل من أهل الصلاح ، وكان له ثلاثة بنين ، وكان للمساكين كل ما تعداه المنجل ، فلم يجذه من الكرم ، فإذا طرح على البساط فكل شيء سقط عن البساط فهو أيضاً للمساكين ، فإذا حصدوا زرعهم ، فكل شيء تعداه المنجل ، فهو للمساكين ، فإذا درسوا كان لهم كل شيء انتثر ، فكان أبوهم يتصدق منها على المساكين ، وكان يعيش في ذلك - في حياة أبيهم - اليتامى والأرامل والمساكين اهـ^(١)

وقال الواحدى^(٢) : هم قوم من ثقيف ، كانوا باليمن مسلمين ، ورثوا من أبيهم ضيعة ، فيها جنات وزرع ونخيل ، وكان أبوهم يجعل مما فيها من كل شيء حظاً للمساكين عند الحصاد والصرام^(٣)

وفي البدء والتأريخ قال : قصة أصحاب ضرّوان وهى

(١) تفسير القرطبي ١٨/٢٤٠ .

(٢) الواحدى ت. سنة ٤٦٨ هـ

علي بن أحمد بن محمد النيسابوري الشافعي ، أبو الحسن ، مفسر ، نحوي ، لغوي ، فقيه ، شاعر له البسيط في ١٨ مجلداً في التفسير ، والمغازي ، سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٢٤ . طبقات الشافعية للإسنوي ١/ ١٨٢ .

(٣) تفسير الشوكاني ٥/ ٢٧١ .

جنة كانت بصنعاء فى الفترة ٠٠٠ قالوا : إنهم كانوا قومًا
مستمسكين بشرائع الإنجيل ، فإذا كان أيام صرامهم ،
نادوا فى الفقراء والمساكين ، فكان لهم ما أسقط الطير ،
وأخطأ المنجل^(١)

وقال ابن الجوزي^(٢) ذكر أهل التفسير أن رجلاً كان
بناحية اليمن - له بستان - وكان مؤمناً ، وذلك بعد عيسى
ابن مريم - عليهما السلام - وكان يأخذ منه قدر قوته ،
وكان يتصدق بالباقي ، وقيل : كان يترك للمساكين ما تعداه
المنجل ، وما يسقط من رؤوس النخل ، وما ينتثر عند
الدراس ، فكان يجتمع من هذا شيء كثير^(٣)

وقال السيوطي : عن قتادة ، قال : كانت الجنة لشيخ
من بني إسرائيل ، وكان يمسك قوت سنته ، ويتصدق
بالفضل ، وكان بنوه ينهونه عن الصدقة اهـ^(٤) .

وقال الثعالبي^(٥) : وأصحاب الجنة - فيما ذكر -

(١) البدء والتأريخ ١٢١/٣ .

(٢) ابن الجوزي ٥١٠ - ٥٩٧ هـ .

عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي التيمي البغدادي الحنبلي ، حافظ ، مفسر ، مؤرخ ، له
المنتظم في تأريخ الأمم .

تذكرة الحفاظ للذهبي ١٣١/٤ . طبقات المفسرين للسيوطي ص ١٧ .

(٣) زاد المسير ٢٣٦/٨ .

(٤) الدر المنثور ٨ / ٢٥٠ .

(٥) الثعالبي ٧٨٦ - ٨٧٥ هـ .

عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري ، أبو زيد ، مفسر من أعيان الجزائر
له الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، وجامع الأمهات في أحكام العبادات .

الضوء اللامع للسخاوي ١٥٢/٤ . نيل الإبتهاج للتنبكتي ١٧٣ - ١٧٥ .

كانوا إخوة ، وكان لأبيهم جنة وحرث ، يفتله ^(١) ، فكان
يمسك منه قوته ، ويتصدق على المساكين بباقيه .

وقيل : بل كان يحمل المساكين معه في وقت حصاده
وجذده ، فيجديهم منه ^(٢)

وفي تفسير أبي السعود قال :

أصحاب الجنة : وهم قوم من أهل الصلاة ، كانت
لأبيهم هذه الجنة - دون صنعاء بفرسخين - فكان يأخذ
منها قوت سنة ، ويتصدق بالباقي ، وكان ينادي الفقراء
وقت الصرام ، ويترك لهم ما أخطأه المنجل ، وما في أسفل
الأكداس ، وما أخطأه القطاف من العنب ، وما بقي على
البساط الذي يبسط تحت النخلة - إذا صرمت - فكان
يجتمع لهم شيء كثير ^(٣)

وفي تفسير البغوي ^(٤) : عن ابن عباس في قوله - عز
وجل - ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ قال : كان
بستان باليمن - يقال له الضروان ، دون صنعاء بفرسخين

(١) يعني يستغله .

(٢) تفسير الثعالبي ٢٢٧/٤ .

(٣) تفسير أبي السعود ١٤/٩ .

(٤) البغوي ت. سنة ٥١٦ هـ .

الحسين بن مسعود أبو محمد ، المعروف بالفراء البغوي الشافعي ، فقيه محدث ،
مفسر ، له : معالم التنزيل في التفسير كان ديناً ورعاً قانعاً باليسير
طبقات الشافعية للإسنوي ١٠١/٢ ترجمة ، ١٧٧ شذرات الذهب لابن العماد
٤٨٠/٤

- يطؤه أهل الطريق ، كان غرسه قوم من أهل الصلاة ، وكان لرجل ، فمات فورثه ثلاثة بنين له ، وكان يكون للمساكين إذا صرموا نخلهم كل شيء تعداه المنجل فلم يجزه ، وإذا طرح من فوق النخل إلى البساط ، فكل شيء يسقط على ^(١) البساط فهو أيضا للمساكين ، وإذا حصدوا زرعهم ، فكل شيء تعداه المنجل ، فهو للمساكين ، وإذا داسوه كان لهم كل شيء ينتثر أيضاً ^(٢) .

(قلت): بعد هذه الجولة في أقوال بعض المفسرين ، نجد أن الأمر كان معلوماً لدى بعض الناس ، ولكن من المعلوم أن مثل هذه القصص لابد أن يكون فيها مثل هذه الزيادة والنقصان على بعد الزمان ، وتفاوت المكان . والله أعلم .

المبحث السابع : نظرة الأولاد إلى فعل أبيهم ؟

يبدو أن أولاد صاحب الجنة كانوا ينظرون إلى أبيهم نظرات متفاوتة :

فمنهم من يرى أن عمله كان طيباً يستحق الثناء ، وهو الذي أنكر على إخوانه فعلهم ، ومنهم من يراه حماقة ، وهو من أشار بمنع المساكين من حقهم .

ومنهم من كان يرى أن عمل أبيهم كان في وقته طيباً

(١) لعل الكلمة (عن) البساط وتقدم له مثال

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٩

لأن المال كثير والعيال كانوا قليلا ، لكنه الآن ليس كذلك ،
ولعل هذا ممن استصوب منع المساكين ، ومنهم من سكت.
والله أعلم.

وقد عرفنا قبل قليل - عند كلامنا عن عدد الأولاد -
أن منهم من أشار بحرمان الفقراء ، ومنهم من استصوبه ،
ومنهم من سكت ، ومنهم من أنكره ، ومن هنا نستطيع أن
نفسر اختلاف المفسرين في كلام الأولاد عن أبيهم ، وإليك
ما قاله الأولاد:

قال البيضاوي وأبو السعود والواحيدي : فلما مات قال
بنوه : إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر فحلفوا
ليصرمنها اهـ .^(١)

وقال ابن كثير : فلما مات وورثه بنوه قالوا : لقد كان
أبونا أحق إذ كان يصرف من هذه شيئا للفقراء ، ولو أنا
منعناهم لتوفر ذلك علينا^(٢)

وقال الطبري : فلما مات أبوهم قال بنوه : والله إن
كان أبونا لأحق ، حين يطعم المساكين ، فأقسموا
ليصرمنها مصبحين^(٣) .

ونقل السيوطي عن ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن

(١) تفسير البيضاوي ٣٧١/٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٠٨/٤ .

(٣) تفسير الطبري ٢٩٠ / ٢٩ .

عباس : فمات أبوهم فقال بنوه : إن كان أبونا لأحمق ، يطعم
المساكين ، فأقسموا ليصرمنها مصبحين^(١) .

وفي زاد المسير قال ابن الجوزي : فمات الرجل عن ثلاثة
بنين فقالوا : والله إن المال لقليل وإن العيال لكثير ، وإنما كان
أبونا يفعل هذا إذ كان المال كثيراً والعيال قليلاً ، وأما الآن فلا
نستطيع أن نفعل هذا ، فعزموا على حرمان المساكين^(٢) .

وقال الثعالبي : فمات الشيخ ، فقال ولده : نحن جماعة
وفعل أبينا كان خطأ ، فلنذهب إلى جنتنا ، ولا يدخلها علينا
مسكين ، ولا نعطي منها شيئاً^(٣)

أما القرطبي فلم يذكر عن الأولاد إلا أنهم منعوا المساكين
حقهم فقال : فلما مات صارت إلى ولده ، فمنعوا الناس
خيرها ، وبخلوا بحق الله فيها ، فأهلكها الله^(٤)

وقال في موضع آخر : فلما مات قال بنوه بعضهم لبعض
علام نعطي أموالنا هؤلاء المساكين ؟ تعالوا فلندلج ،
فلنصرمنها قبل أن يعلم المساكين ٠٠٠ فلما مات أبوهم فعلوا
ما قصه الله عنهم فقالوا : قل المال وكثر العيال^(٥) .

وهكذا عرفنا أن الأولاد انقسموا فيما بينهم بين مشير
بالرأي الفاسد ، وبين مستحسن ، أو ساكت ، أو منكر. والله أعلم.

(١) الدر المنثور ٢٥٠/٨ .

(٢) زاد المسير ٣٣٥/٨ . تفسير البغوي ٤ / ٣٧٩ . تفسير الشوكاني ٥ / ٢٧١ .

(٣) تفسير الثعالبي ٤ / ٣٢٧ .

(٤) تفسير القرطبي ١٨ / ٢٣٩ .

(٥) تفسير القرطبي ١٨ / ٢٤٠ .

المبحث الثامن : هل هم من أهل الجنة أو من أهل النار؟

عن معمر^(١) قال : قلنا لقتادة : أمن أهل الجنة هم أم من أهل النار؟
قال: لقد كلفتني تعباً^(٢)

وعن الحسن - رحمه الله تعالى - قول أصحاب الجنة
إنا إلى ربنا راغبون ، لا أدري إيماناً كان ذلك منهم ، أو
على حد ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة ؟
فتوقف في أمرهم.

والأكثر على أنهم تابوا وأخلصوا حكاه القشيري^(٣)
(قلت): المسألة لا تحتاج إلى كثير عناء، فهم قد تابوا
وطلبوا من الله تعالى أن يسامحهم وقالوا ﴿إنا إلى ربنا
راغبون﴾ والله تعالى لا يرد من تاب وأناب. والله أعلم،
وسأتي مزيد بيان في الفصل الخامس.

قال الثعالبي في تفسيره : فبادر القوم عند ذلك وتابوا

(١) معمر ت. سنة ١٥٤هـ

معمر بن راشد الأزدي مولاهم ، أبو عروة البصري ، ثقة ، ثبت ، فاضل .
تقريب التهذيب لابن حجر ٢/٢٦٦. ترجمة ١٢٨٤. الخلاصة للأنصاري ص ٢٨٤.

(٢) الدر المنثور ٨/٢٥٢. تفسير أبي السعود ٩/١٦.

(٣) تفسير أبي السعود ٩/١٦. تفسير القرطبي ١٨/٢٤٥.

والقشيري ٣٧٦-٤٦٥هـ

عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك النيسابوري القشيري ، أبو القاسم ، زين
الإسلام ، من كتبه التيسير في التفسير ، والتفسير الكبير . طبقات الشافعية
للسبكي ٣/٢٤٣-٢٤٨. تاريخ بغداد للخطيب ١١/٨٣.

وسبحوا ، واعترفوا بظلمهم في اعتقادهم منع الفقراء ،
ولام بعضهم بعضاً ، واعترفوا بأنهم طغوا ، أي تعدوا ما
يلزم من مواساة المساكين ، ثم انصرفوا إلى رجاء الله
سبحانه ، وانتظار الفضل من لدنه في أن يبدلهم بسبب
توبتهم وإنابتهم خيراً من تلك الجنة .

وقال الثعالبي أيضاً : قال ابن مسعود ^(١) : بلغني أن
القوم لما أخلصوا ، وعلم الله صدقهم ، أبدلهم الله - عز
وجل - بها جنة يقال لها الحيوان ، فيها عنب يحمل البغلُ
العنقود منها ، وعن أبي خالد اليماني ^(٢) : أنه رأى تلك
الجنة ، ورأى كل عنقود منها كالرجل الأسود القائم، انتهى .
وقدرة الله أعظم فلا يستغرب هذا ^(٣)

المبحث التاسع : سبب نزول هذه القصة :

قال السيوطي: عن قتادة في قوله ﴿إنا بلوناكم كما
بلونا أصحاب الجنة﴾ قال: هؤلاء ناس قص الله عليكم
حديثهم ، وبين لكم أمرهم .

(١) ابن مسعود ت. سنة ٣٢ .

عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي ، أبو عبد الرحمن ، أسلم قديماً ،
وهاجر الهجرتين وشهد المشاهد ، ولازم النبي ﷺ .

الإصابة لابن حجر ٢/٣٦٨ - ٣٧٠ ترجمة ٤٩٥٤ . الإشتيعاب لابن عبد البر ٢/٣١٦ -
٣٢٤ .

(٢) لم أجده .

(٣) تفسير الثعالبي ٤/٣٢٨-٣٢٩ . تفسير أبي السعود ٩/١٦ . تفسير البغوي ٤/٣٨١ .

وعن ابن جريجأن أبا جهل^(١) قال يوم بدر : خذوهم
أخذًا ، فاربطوهم في الجبال ، ولا تقتلوا منهم أحدًا ، فنزل
﴿إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة﴾ يقول في قدرتكم
عليهم ، كما اقتدر أصحاب الجنة على الجنة^(٢) .

(قلت) أي لم يقدرُوا على المسلمين كما لم يقدر أصحاب
الجنة على جنتهم.

المبحث العاشر: مفردات قصة أصحاب الجنة في القرآن الكريم

﴿إنا بلوناكم﴾ أي اختبرناهم^(٣) امتحنناهم
فاختبرناهم^(٤) أي بلونا أهل مكة - شرفها الله تعالى -
بالقحط والجوع^(٥) وذلك بدعوة النبي ﷺ عليهم.

والمعنى: أعطيناهم الأموال ليشكروا لا ليضطروا ، فلما
بطروا ابتليناهم بالجوع والقحط كما بلونا أصحاب الجنة
المعروف خبرهم عندهم، وذلك أنها كانت بأرض اليمن على
فرسخين من صنعاء لرجل يؤدي حق الله منها فمات وصارت
إلى أولاده ، فمنعوا الناس خيرها ، وبخلوا بحق الله فيها^(٦) وقيل

(١) أبو جهل ت. سنة ٢ هـ

عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي ، أشد الناس عداوة للنبي ﷺ ، أحد سادات قريش ،
وأبطالها وقادتها في الجاهلية ، قتل يوم بدر . عيون الأخبار ١/٢٣٠ . السيرة الحلبية ٢/٣٣ .

(٢) الدر المنثور ٨/ ٢٥٠ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٤٠٧ . تفسير أبي السعود ٩/١٤ .

(٤) تفسير الطبري ٢٩/٢٩ . تفسير الثعالبي ٤/٢٣٧ . تفسير الواحدي ٢/ ١١٢٢ .

(٥) تفسير البضاوي ٥/ ٣٧٢ . تفسير الشوكاني ٥/٢٧١ . تفسير الجلالين ١/٧٥٨ . زاد المسير
٨/٣٣٥ . تفسير الواحدي ٢/ ١١٢٢ . تفسير البغوي ٤/ ٣٧٩ .

(٦) تفسير القرطبي ١٨/٢٣٩ . تفسير الشوكاني ٥/٢٧١ .

هي جنة بضروان ، وضروان على فرسخ من صنعاء .

قال القرطبي في تفسيره:

قال ابن الهيثم : البلاء يكون حسنا ويكون سيئاً ،
وأصله المحنة والله - عز وجل - يبلو عبده بالصنع الجميل
ليمتحن شكره ، ويبلوه بالبلوى التي يكرها ليمتحن صبره ،
فقليل للحسن بلاء وللسيئ بلاء^(١)

ونقل الألوسي في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿حتى إذا
أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون﴾ عن الضحاك: أن
المراد بالعذاب عذاب الجوع ، وذلك أنه - صلى الله تعالى
عليه وسلم - دعا عليهم فقال: (اللهم اشد وطأتك على
مضر ، اللهم اجعلها عليهم سنين مثل سني يوسف)
فاستجيب له - عليه الصلاة والسلام - فأصابتهم سنة
أكلوا فيها الجيف والجلود والعظام المحرقة والعلهز^(٢)

وفي الأخبار ما يدل على أن ذلك كان قبل الهجرة ،
وفيها أيضاً ما يدل على أنه كان قبلها^(٣)

ووفق البيهقي بأنه لعله كان مرتين ٠٠٠ وتخصيص
المترفين بالذكر لأنه إذا جاع المترف جاع غيره من باب أولى
وقيل: المراد بالعذاب عذاب الآخرة، وتخصيص

(١) تفسير القرطبي ١/٣٨٧ .

(٢) العلهز : قال القرطبي : كانوا يأخذون الصوف والوبر فيبلونه بالدم ثم يشوونه
ويأكلونه ، تفسير القرطبي ١٢/١٤٣ .

(٣) لعله بعدها .

المترفين بما ذكر ؛ لغاية ظهور انعكاس حالهم وانتكاس أمرهم وكون ذلك أشق عليهم ؛ ولأنهم مع كونهم متمنعين محميين بحماية غيرهم من المنعة والحشم لقوا ما لقوا من الحالة الفظيعة ، فلأن يلقاها من عداهم من الحماة والخدم أولى وأقدم.

وقال شيخ الإسلام: إن هذا القول هو الحق ؛ لأن العذاب الأخروي هو الذي يفاجئون عنده الجوار فيجابون بالرد والإقنات من النصر ، وأما عذاب يوم بدر فلم يوجد لهم عنده جوار حسبما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾ فإن المراد بهذا العذاب ما جرى عليهم يوم بدر من القتل والأسر حتمًا.

وأما عذاب الجوع ، فإن قريشًا - وإن تضرعوا فيه إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لكن لم يرد عليهم بالإقنات حيث روي أنه - عليه الصلاة والسلام - دعا بكشفه فكشف عنهم ذلك . انتهى^(١)

ونقل ابن كثير عن البخاري بسنده عن أبي هريرة قال: بينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصلي العشاء إذ قال (سمع الله لمن حمده) ثم قال - قبل أن يسجد -

(١) روح المعاني للألوسي ٤٨/١٨ .

(اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة^(١) اللهم أنج سلمة بن هشام^(٢) اللهم أنج الوليد بن الوليد^(٣) ، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين ، اللهم أشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف^(٤))

ونقل ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رفع يده بعد ما سلم وهو مستقبل القبلة فقال: (اللهم خلص الوليد بن الوليد ، وعياش بن أبي ربيعة ، وسلمة بن هشام ، وضعفة المسلمين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا من أيدي الكفار)

ونقل ابن جرير عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو في دبر صلاة الظهر (اللهم خلص الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبي ربيعة وضعفة

(١) عياش بن أبي ربيعة المتوفى سنة (١٥ هـ)

عياش بن عمرو بن الغيرة المخزومي القرشي ، يلقب بذي الرمحين ، أسلم قديما وهاجر الهجرتين .

تقريب التهذيب لابن حجر ٩٥/٢ ترجمة (٨٤٨)

(٢) سلمة بن هشام المتوفى سنة (١٤ هـ)

سلمة بن هشام بن المغيرة المخزومي ، أبو هاشم ، أسلم قديما ، وهو أخو أبي جهل . الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ترجمة ٣٣٩٦ . تهذيب ابن عساكر ٢٣٤/٦ .

(٣) الوليد بن الوليد المتوفى سنة (٧ هـ) .

الوليد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، من أشرف قريش في الجاهلية ومن أجدادهم ، وهو أخو خالد بن الوليد .

الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ترجمة ٣٥١٩ الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر ٥٩٢/٣ .

(٤) فتح الباري ٢٦٤/٨ برقم (٤٥٩٨)

المسلمين من أيدي المشركين الذين لا يستطيعون حيلة ولا
يهتدون سبيلاً)

ولهذا الحديث شاهد في الصحيح من غير هذا الوجه
كما تقدم^(١)

(قلت): هو في البخاري بأطول من هذا حيث ذكر
بسنده أن أبا هريرة كان يكبر في كل صلاة من المكتوبة
وغيرها ، في رمضان وغيره : فيكبر حين يقوم ، ثم يكبر
حين يركع ، ثم يقول سمع الله لمن حمده ، ثم يقول : ربنا
ولك الحمد قبل أن يسجد ، ثم يقول : الله أكبر حين يهوي
ساجداً ، ثم يكبر حين يرفع رأسه من السجود ، ثم يكبر
حين يقوم من الجلوس في الاثنتين ، ويفعل ذلك في كل
ركعة حتى يفرغ من الصلاة ، ثم يقول حين ينصرف: والذي
نفسى بيده إني لأقربكم شبهاً بصلاة رسول الله ﷺ إن
كانت هذه صلاته حتى فارق الدنيا ، قالوا: وقال أبو
هريرة رضي الله عنه : وكان رسول الله ﷺ حين يرفع رأسه يقول:
(سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد) يدعو لرجال
فيسمئهم بأسمائهم ، فيقول: (اللهم أنج الوليد بن الوليد ،
وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبي ربيعة ، والمستضعفين من
المؤمنين ، اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها
عليهم سنين كسنين يوسف) وأهل المشرق يومئذٍ
من مضر مخالفون له^(١)

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٤٣

وذكر الألوسي عند قوله تعالى ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُؤُا فِي طَغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٥) ﴿المؤمنون﴾ آراء كثيرة غير ما تقدم ، وسأذكر ما قاله بطوله ليتبين المراد :

﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر﴾ أي من سوء حال .

قيل : هو ما عراهم بسبب أخذ مترفيهم بالعذاب يوم بدر ، أعني الجزع عليهم ، وذلك بإحيائهم وإعادتهم إلى الدنيا بعد القتل ، أي ولو رحمناهم وكشفنا ضرهم بإرجاع مترفيهم إليهم ﴿للجوا﴾ لتمادوا ﴿في طغيانهم﴾ إفراطهم في الكفر والإستكبار ، وعداوة الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .

﴿يعمهُون﴾ عامهين : مترددين في الضلال ، يقال : عَمَّه : كَمَنَعَ وفرح ، عَمَّهَا وَعُمُوها وَعُمُوهاً وَعُمَّهَانَا .

وقيل : هو ما هم فيه من شدة الخوف من القتل والسبي ومزيد الإضطراب من ذلك ؛ لما رأوا ما حل بمترفيهم يوم بدر ، وكشفه بأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بالكف عن قتالهم وسبيهم بعد ، أو بنحو ذلك .

(١) صحيح البخاري (١٠) كتاب الأذان (١٢٨) باب يهوي بالتكبير حين يسجد ، وانظر صحيح مسلم (٥) كتاب المساجد (٥٤) باب استحباب القنوت في جميع الصلاة . رقم (٢٩٢ - ٦٧٥) / ١ / ٤٦٦

وهو وجه ليس بالبعيد .

وقيل: المراد بالضرر : عذاب الآخرة : أي أنهم في الرداءة والتمرد إلى أنهم لو رحموا وكشف عنهم عذاب النار وردوا إلى الدنيا؛ لعادوا لشدة لجأهم فيما هم عليه . وفيه من البعد ما فيه .

واستظهر أبو حيان أن المراد به القحط والجوع الذي أصابهم بدعاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وذكر أنه مروى عن ابن عباس وابن جريج .

وقد دعا عليهم - صلى الله عليه وسلم - بذلك في مكة يوم ألقى عليه المشركون - وهو قائم يصلي عند البيت- سلى جزور فقال: (اللهم اشد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف) .

ودعا بذلك أيضاً بالمدينة .

فقد روي أنه - عليه الصلاة والسلام - مكث شهراً إذا رفع رأسه من الركعة الثانية من صلاة الفجر بعد قوله سمع الله لمن حمده يقول: (اللهم انج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبي ربيعة ، والمستضعفين من المؤمنين بمكة اللهم اشد وطأتك) الخ ، وربما فعل ذلك بعد رفعه من الركعة الأخيرة من صلاة العشاء ، وكلتا الروايتين ذكرهما برهان الدين الحلبي في سيرته .

والكثير على أنه الجوع الذي أصابهم من منع ثمامة الميرة عنهم ، وذلك أن ثمامة بن أثال الحنفي جاءت به إلى المدينة سرية محمد بن مسلمة حين بعثها - صلى الله عليه وسلم - إلى بني بكر ابن كلاب ، فأسلم بعد أن امتنع من الإسلام ثلاثة أيام ، ثم خرج معتمراً فلما قدم بطن مكة لبي ، وهو أول من دخلها مليئاً ، ومن هنا قال الحنفي:

ومنا الذي لبي بمكة معلناً برغم أبي سفيان في الأشهر الحرم فأخذته قريش فقالوا : لقد اجتأرت علينا ، وقد صبوت يا ثمامة ، قال: أسلمت واتبعت خير دين دين محمد - صلى الله عليه وسلم - والله لا يصل إليكم حبة من اليمامة-وكانت ريفاً لأهل مكة-حتى يأذن فيها رسول الله- صلى الله عليه وسلم.

ثم خرج ثمامة إلى اليمامة ، فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئاً حتى أضرب بهم الجوع ، وأكلت قريش العلهز ، فكتبت قريش إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم : ألسنت تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ؟ فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع ، إنك تأمر بصلة الرحم ، وأنت قد قطعت أرحامنا ، فكتب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى ثمامة - رضي الله تعالى عنه (خل بين قومي وبين ميرتهم) ففعل^(١)

١ (الاستيعاب لابن عبد البر ٢١٥/١ . الإكمال لابن ماکولا ٢/٣٨٩ ط ١ دار الكتب العلمية .

وفي رواية أن أبا سفيان جاءه صلى الله عليه وسلم
فقال أأست الخ^(١)

ووجه الجمع ظاهر^(٢)

وكان هذا قبل الفتح بقليل ، وعندي أنه بعيد هذا
القول ، كما لا يخفى^(٣)

نعم أخرج ابن جرير وجماعة عن ابن عباس ما هو
نص في أن قصة ثمامة سبب لنزول قوله تعالى ﴿ولقد
أخذناهم بالعذاب﴾ إلى آخره ، فيكون الجوع مراداً من
العذاب المذكور فيه على ذلك.

ولا يرد على من قال به قوله تعالى ﴿فما استكانوا﴾
فما خضعوا بذلك لربهم ؛ لأن له أن يقول : المراد بالخضوع
له عز وجل : الإنقياد لأمره سبحانه والإيمان به جل وعلا ،
وما كان منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس منه
في شيء .

والمشهور أن المراد بالعذاب ما نالهم يوم بدر من القتل
والأسر^(٤)

وقال الثعالبي في تفسيره عند قوله تعالى

(١) تفسير القرطبي ١٢/١٤٣، تفسير الطبري ١٨/٤٥ .

(٢) يعني بتكرر الحادثة

(٣) يريد أن هذا القول بعيد ؛ لأن القصة في مكة قبل الهجرة ، وفتح مكة كان في
السنة الثامنة للهجرة

(٤) روح المعاني للآلوسي ١٨ / ٥٤-٥٥ .

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاَكِبُونَ﴾ (٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُودِ فِي طَغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مَبْلُؤُونَ ﴿٧٧﴾ ﴿

قال : ثم أخبر تعالى عنهم أنهم لو زال عنهم القحط ، ومنّ الله عليهم بالخصب ، ورحمهم بذلك لبقوا على كفرهم ولجوا في طغيانهم ، وهذه الآية نزلت في المدة التي أصاب فيها قريشا السنون الجدية والجوع الذي دعا به النبي - صلى الله عليه وسلم - في قوله: (اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف) الحديث.

ولقد ﴿أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ قال ابن عباس وغيره: هو الجوع والجذب حتى أكلوا الجلود وما جرى مجراها .

وروى أنهم لما بلغهم الجهد ركب أبو سفيان وجاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة فقال : يا محمد أأست تزعّم أنك بعثت رحمة للعالمين ؟ قال (بلى) قال: قد قتلت الآباء بالسيف ، والأبناء بالجوع ، وقد أكلنا العلهز، فنزلت الآية:....

(واستكانوا): معناه تواضعوا وانخفضوا .

وقوله سبحانه: ﴿حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد﴾ الآية ، وَعَدَ بعذاب غير معين ، وهذا هو الصواب وهذه المجاعة إنما كانت بعد وقعة بدر ،

والمبلس: الذي قد نزل به شر ويئس من زواله ونسخه
بخير^(١)

وبين الشوكاني في فتح القدير عند تفسيره لسورة
قريش حال المشركين من أهل مكة ، كما بين كيفية إنعام
الله تعالى عليهم فقال:

فإن ارتحال قريش للتجارة معلوم معروف في الجاهلية
والإسلام.

قال ابن قتيبة: إنما كانت تعيش قريش بالتجارة ،
وكانت لهم رحلتان في كل سنة : رحلة في الشتاء إلى
اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام ، ولولا هاتان الرحلتان
لم يمكن بها - أي بمكة - مقام ، ولولا الأمن بجوارهم
البيت لم يقدروا على التصرف ﴿فليعبدوا رب هذا
البيت﴾ أمرهم سبحانه بعبادته، بعد أن ذكر لهم ما أنعم به
عليهم: أي إن لم يعبدوه لسائر نعمه؛ فليعبدوه لهذه النعمة
الخاصة المذكورة.

والبيت : الكعبة ، وعرفهم سبحانه بأنه رب هذا
البيت؛ لأنها كانت لهم أوثان يعبدونها ، فميز نفسه عنها .
وقيل : لأنهم بالبيت تشرفوا على سائر العرب، فذكر
لهم ذلك تذكيراً لنعمته .

(١) تفسير الثعالبي ٣/١٠٢-١٠٣ .

﴿الذي أطعمهم من جوع﴾ أي أطعمهم بسبب تينك الرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما .

وقيل : إن هذا الإطعام هو أنهم لما كذبوا النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - دعا عليهم فقال : (اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف) فاشتد القحط ، فقالوا : يا محمد ادع الله لنا فإننا مؤمنون ، فدعا ، فأخصبوا وزال عنهم الجوع وارتفع القحط ﴿وآمنهم من خوف﴾ أي من خوف شديد كانوا فيه .

قال ابن زيد : كانت العرب يغير بعضها على بعض ، ويسبي بعضها بعضاً ، فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم . وقال الضحاك والربيع وشريك وسفيان : آمنهم من خوف الحبشة مع الفيل .

﴿الذي أطعمهم من جوع﴾ يعني قريشا أهل مكة بدعوة إبراهيم حيث قال :

﴿وارزق أهله من الثمرات﴾ .

﴿وآمنهم من خوف﴾ حيث قال إبراهيم : ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ .

وعن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : ﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾ ويحكم يا قريش اعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمكم من جوع وآمنكم من خوف .

وقال الشوكاني أيضاً: وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا إِلَافَ قَرِيشٌ﴾ قال: نعمتي على قريش ﴿إِيلافهم﴾ رحلة الشتاء والصيف ، كانوا يشتون بمكة ، ويصيفون بالطائف ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾ قال: الكعبة ﴿الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ قال: الجذام.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه ﴿لَا إِلَافَ قَرِيشٌ إِيلافهم﴾ قال : لزومهم ﴿الذي أطعمهم من جوع﴾ يعني قريشاً أهل مكة بدعوة إبراهيم حيث قال:

﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾

﴿وَأَمْنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ حيث قال إبراهيم ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾

وقال : وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضاً في قوله: ﴿لَا إِلَافَ قَرِيشٌ﴾ الآية قال: نهاهم عن الرحلة وأمرهم أن يعبدوا رب هذا البيت، وكفاهم المؤونة ، وكانت رحلتهم في الشتاء والصيف، ولم يكن لهم راحة في شتاء ولا صيف، فأطعمهم الله بعد ذلك من جوع، وآمنهم من خوف، فألفوا الرحلة ، وكان ذلك من نعمة الله عليهم.

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال : أمروا أن

يألفوا عبادة رب هذا البيت كإلفهم رحلة الشتاء والصيف ،
وقد وردت أحاديث في فضل قریش وإن الناس تبع لهم في
الخير والشر ، وأن هذا الأمر يعني الخلافة لا يزال فيهم
ما بقي منهم اثنان وهي في دواوين الإسلام^(١)

﴿كما بلونا أصحاب الجنة﴾ الجنة: البستان^(٢)
المشتمل على أنواع الثمار والفواكه^(٣) جنات وزروع
ونخيل^(٤) قال مجاهد : كان حرثهم عنباً^(٥) ورثوا من أبيهم
ضيعة^(٦) وقد انتهت واستحقت أن تجذ^(٧)

والألف واللام في (الجنة) ليست للعموم ، ولا هي
للمعهود اللفظي^(٨) لأنه لم يتقدم معهود لفظي ، وإنما
هي للمعهود الذهني^(٩) الذي دل عليه السياق،

(١) فتح القدير للشوكاني ٥/ ٤٩٨ - ٤٩٩ . وانظر صحيح البخاري ٣/ ١٢٨٩ .
مناقب قریش . صحيح مسلم ٣/ ١٤٥٢ : ما بقي منهم اثنان . و. ٤/ ١٧٨٢ . اصطفاء
قریش . سنن الدارمي ٢/ ٣١٥ .

(٢) تفسير البضاوي ٥/ ٣٧١ . تفسير الطبري ٢٩/ ٢٩ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٠٧ .

(٤) تفسير الشوكاني ٥/ ٢٧١ .

(٥) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٠٧ .

(٦) تفسير الشوكاني ٥/ ٢٧١ .

(٧) البداية والنهاية ٢/ ١٢٠ ٩

(٨) أي ليست للعهد الذكري .

(٩) لأنها كانت معروفة عندهم ، كما تقدم .

وهو البستان^(١)

﴿أقسموا﴾ حلفوا فيما بينهم^(٢) فتحالفوا بينهم
يوماً ليغدوْنَ غدوةً قبل خروج الناس فليصرمنَّ نخلهم ولم
يستثنوا^(٣)

﴿ليصرمنها﴾ ليقطعنها^(٤) ليجذن ثمرها ليلاً ؛ لئلا
يعلم بهم فقير ولا سائل ليتوفر ثمرها عليهم ، ولا
يتصدقون منه بشيء^(٥) ومنه قول امرئ القيس^(٦) :

صرمتك بعد تواصل دعد وبدا لدعد بعض ما يبدو^(٧)
﴿مصبحين﴾ داخلين في الصباح^(٨) أو في أول الصباح
وقد بقيت من الليل ظلمة لئلا يبقى للمساكين شيء^(٩)

وانتصاب ﴿مصبحين﴾ على الحال من فاعل
﴿ليصرمنها﴾ ، والكاف في ﴿كمابلوناهم﴾ نعت مصدر

(١) انظر البداية والنهاية ٧٦/١ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤ . تفسير الطبري ٢٩/٢٩ . زاد المسير ٣٣٥/٨ .

(٣) تفسير البغوي ٤ / ٣٧٩ .

(٤) تفسير البيضاوي ٣٧٣/٥ . تفسير الطبري ٢٩/٢٩ : الصرم : القطع .

(٥) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤ .

(٦) امرئ القيس نحو ١٢٠-٨٠ ق.هـ .

امرئ القيس بن حجر بن الحارث الكندي أشهر شعراء العرب ، يمني الأصل ، ولد
بنجد ، ومات بأنقرة مقروحاً .

الأغاني للأصفهاني ٧٧/٩ . شرح شواهد المغني ص ٦ .

(٧) تفسير الطبري ٢٩/٢٩ .

(٨) تفسير البيضاوي ٣٧١/٥ . تفسير الطبري ٢٩/٢٩ : إذا أصبحوا . البداية
والنهاية ١٢٠/٢ . تفسير أبي السعود ١٤/٩ .

(٩) زاد المسير ٣٣٦،/٨

محذوف: أي بلوناهم ابتلاء كما بلونا .

وما مصدرية بمعنى الذي .

وإذ ظرف لبلونا منتصب به .

﴿ليصرمنها﴾ جواب القسم ﴿ولا يستثنون﴾

﴿ولا يستثنون﴾ يعني : ولا يقولون إن شاء الله ،
وهذه الجملة مستأنفة لبيان ما وقع منهم أو حال ^(١) .

أي : ولا يقولون إن شاء الله ، وإنما سماه استثناء لما
فيه من الإخراج ، غير أن المخرج خلاف المذكور ، والمخرج
بالاستثناء عينه ، أو لأن معنى لا أخرج إن شاء الله ، ولا
أخرج إلى أن يشاء الله واحد ، أو لا يستثنون حصة
المساكين كما كان يخرج أبوهم ^(٢) أو لا يستثنون فيما حلفوا
به ، ولذلك حنثهم الله في أيمانهم فقال تعالى: ﴿فطاف
عليها طائف﴾ ^(٣)

قال ابن كثير: ولم يستثنوا في يمينهم فعجزهم الله ،
وسلط عليها الآفة التي أحرقتها ، وهي السفعة التي
اجتاحها ولم تبق بها شيئاً ينتفع به ^(٤)

(١) تفسير الشوكاني ٢٧١/٥ .

(٢) تفسير البياضوي ٣٧١/٥ . زاد المسير ٣٣٥/٨ . تفسير أبي السعود ١٤/٩ . تفسير البغوي ٣٧٩/٤

(٣) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤ . تفسير الطبري ٢٩/ ٢٩ . ولا يقولوا إن شاء الله .

(٤) البداية والنهاية ١٢٠/٢ . والسفعة : وزان غرفة ، سواد مشرب بحمرة ، المصباح المنير ٢٩٩/١ .

وجملة (ولا يستنون) مستأنفة^(١)

﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون﴾ أنزل الله عليها ناراً فأحرقتها^(٢) أو أصابتها آفة سماوية ،

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إياكم والمعاصي ، إن العبد ليذنب الذنب ، فيحرم به رزقاً قد كان هيء له ، ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم﴾^(٣) قد حرّموا خير جنتهم بذنبهم^(٤) وجملة (وهم نائمون) في محل نصب على الحال^(٥) وقال ابن جريج^(٦) عن الطائف الذي أحرق جنتهم : عنق من النار خرجت من وادي جهنم^(٧)

وقيل : هو نار أحرقتها حتى صارت سوداء كذا قال مقاتل^(٨)

(١) تفسير أبي السعود ٩/ ١٤ .

(٢) تفسير الواحدي ٢/ ١٢٢ ، تفسير البغوي ٤/ ٣٧٩ .

(٣) تفسير القرطبي ١٨/ ٢٤٤ سواء . الدر المنثور ٨/ ٢٥١ . والفردوس بمأثور الخطاب لشيرويه ١/ ٢٨٣ ذكره موقوفاً على ابن مسعود .

(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٠٧ .

(٥) تفسير الشوكاني ٥/ ٢٧١ .

(٦) ابن جريج ٨٠-١٥٠هـ .

عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، أبو الوليد ، إمام الحجاز في عصره ، أول من صنف التصانيف في مكة . تذكرة الحفاظ للذهبي ١/ ١٧٠ . صفة الصفوة لابن الجوزي ٢/ ١٢٢ .

(٧) الدر المنثور للسيوطي ٨/ ٣٥١ .

(٨) مقاتل ت. سنة ١٥٠هـ .

مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء ، البلخي ، أبو الحسن ، من أعلام المفسرين ، من كتبه التفسير الكبير ، ونوادر التفسير .

وفيات الأعيان ٢/ ١١٢ . تهذيب التهذيب لابن الكمال ١٠-٢٧٩

وقيل : الطائف جبريل اقتلعها^(١)

قال الطبري : فطرق جنة هؤلاء القوم ليلا طارق من
أمر الله وهم نائمون ، ولا يكون الطائف في كلام العرب إلا
ليلا ، ولا يكون نهاراً ، وقد يقولون أطفت به نهارا ، وذكر
الفراء^(٢) أن أبا الجراح^(٣) أنشده :

أطفت بها نهارا غير ليل وألهى ربها طلب الرخال^(٤)
والرخال : هي أولاد الضأن الإناث^(٥) وقرئ : طيف من
ربك أي مبتدأ من جهته تعالى^(٦)

﴿من ربك﴾ أي من أمر ربك^(٧)

﴿وهم نائمون﴾ غافلون عما جرت به المقادير^(٨)

﴿كالصريم﴾ قال الطبري : اختلف أهل التأويل في

الذي عنى بالصريم:

(١) تفسير الشوكاني ٢٧١/٥ . .

(٢) الفراء ١٤٤ - ٢٠٧ هـ

يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي ، مولى بني أسد ، أبو زكريا ،
إمام الكوفيين ، وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب ، وكان فقيها متكلما . من كتبه
المقصود والممدود ، والمعاني .

وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٢٨/٢ . الفهرست لابن النديم ٦٦-٦٧ .

(٣) لم أجده .

(٤) لم أجده . وانظر الرخال في الوسيط ٣٣٦/١ (رخل)

(٥) تفسير الطبري ٢٩ / ٣٠ . تفسير البياضوي ٣٧١/٥ : بلاء من ربك ، مبتدأ منه
وهم نائمون .

(٦) تفسير أبي السعود ١٤/٩ .

(٧) زاد المسير ٨ / ٣٣٥ .

(٨) تفسير أبي السعود ١٤٠/٩ .

فقال بعضهم : عنى به الليل الأسود .

وقال بعضهم : معنى ذلك : فأصبحت جنتهم محترقة
سوداء كسواد الليل المظلم البهيم . وقال آخرون : بل معنى
ذلك فأصبحت كأرض تدعى الصريم ، معروفة بهذا الاسم
قال سعيد بن جبير^(١) : هي أرض باليمن ، يقال لها
ضروان من صنعاء على ستة أميال^(٢) أي كالبلستان الذي
صرم ثماره ، بحيث لم يبق منه شيء ، فعيل ، بمعنى مفعول
، أو كالليل باحتراقها واسودادها ، أو كالنهار ببيضاضها
من فرط اليبس ، سميا بالصريم ؛ لأن كلا منهما ينصرم
عن صاحبه ، أو كالرمل^(٣)

وقال الفراء : كالصريم كالليل المظلم ، ومنه قول
الشاعر :

تطاول ليلك الجون الصريم فما ينجاب عن صبح بهيم
والمعنى أنها أحرقت فصارت كالليل الأسود .

قال : والصريم الرماد بلغة خزيمة .

(١) سعيد بن جبير ٤٥-٩٥ هـ .

هو الأسدي مولاهم ، الكوفي ، أبو عبد الله : تابعي ، كان أعلمهم على الإطلاق ،
قال أحمد بن حنبل : قتل الحجاج سعيداً وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر
إلى علمه .

وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٠٤/١ . طبقات ابن سعد ١٧٨/٦ .

(٢) تفسير الطبري ٣١/٢٩ باختصار . تفسير الواحدي ١١٢٢/٢ : كالليل المظلم
سوداء . تفسير البغوي ٤/ ٣٧٩ . وقال الحسن : صرم منها الخير فليس فيها شيء .

(٣) تفسير البياضوي ٣٧٢/٥ . وانظر زاد المسير ٣٣٦/٨ . تفسير أبي السعود ١٥٠/٩ .

وقال الأخفش^(١) : هي كالصبح انصرم من الليل ،
يعني أنها ييست و ابيضت .

وقال المبرد^(٢) : الصريم الليل ، والصريم النهار أي
ينصرم هذا عن هذا وذاك عن هذا ، وقيل سمي الليل
صريماً ؛ لأنه يقطع بظلمته عن التصرف .
وقال المؤرج^(٣) : الصريم الرملة ؛ لأنها لا يثبت عليها
شيء ينتفع به .

وقال الحسن : صرم منها الخير أي قطع^(٤) وهذه
معاملة بنقيض المقصود^(٥)

﴿فتنادوا مصبحين﴾ أي لما كان وقت الصباح ، نادى
بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الجذاذ : أي القطع^(٦) . أي

(١) الأخفش ت سنة ٣١٥هـ

علي بن سليمان بن الفضل الأخفش الصغير ، البغدادي ، أبو الحسن النحوي ، إخباري لغوي
له : التثنية والجمع ، وشرح كتاب سيبويه في النحو
الوافي بالوفيات للصفدي ١٢/٧٣-٧٤ . طبقات النحاة واللغويين ٤٢٣-٤٢٤ .

(٢) المبرد ٢١٠-٢٨٦هـ

محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي ، أبو العباس ، إمام العربية ببغداد في زمانه ، له :
المذكر والمؤنث ، والمقتضب .

بغية الوعاة ١١٦ ، وفیات الأعيان ١/٤٩٥ .

(٣) المؤرج المتوفى سنة (١٩٥هـ)

مؤرج بن عمرو بن الحارث ، من بني سدوس بن شيبان ، أبو فيد ، عالم بالعربية ، والأنساب
له جماهير القبائل ، والأمثال .

وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/١٣٠ . بغية الوعاة ص ٤٠٠ .

(٤) تفسير الشوكاني ٥/٢٧٢ . زاد المسير ٨/٣٣٦ . تفسير البغوي ٤/ ٢٧٩ ذكر كلام الأخفش ثم
قال : وقال ابن عباس : كالرماد الأسود بلغة خزيمة .

(٥) البداية والنهاية ٢/١٢٠ . تفسير الثعالبي ٤/٣٢٨

(٦) تفسير ابن كثير ٤/٤٠٧ . زاد المسير ٨/٣٣٦ . تفسير أبي السعود ٩/١٥ .

داخلين في الصباح^(١)

﴿أَنْ﴾ أَنْ اخرجوا، أو بَأَنْ اخرجوا^(٢)

﴿قلت﴾ أَنْ اغدوا فهي مفسرة ، وبَأَنْ اغدوا فهي
مصدرية^(٣)

﴿اغدوا﴾ اخرجوا غدوة^(٤) .

والغدوة : ما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس ،
والجمع غُدَى مثل مدية ومدى ، هذا أصله ثم كثر حتى
استعمل في الذهاب والانطلاق أي وقت كان^(٥)

﴿على﴾ تعدية الفعل بعلی : إما لتضمنه معنى الإقبال
أو بتشبيه الغدو للصرام بغدو العدو المتضمن معنى
الاستعلاء^(٦) .

لكن قال الشوكاني^(٧) : والغدو يتعدى بإلى وعلى، فلا
حاجة إلى تضمينه معنى الإقبال كما قيل ، قال: وجواب

(١) تفسير الثعالبي ٣٢٨/٤ .

(٢) تفسير البيضاوي ٣٧٢/٥ . تفسير أبي السعود ١٥/٩ .

(٣) انظر تفسير الشوكاني ٣٧٢/٥

(٤) تفسير البيضاوي ٣٧٢/٥ .

(٥) المصباح المنير للفيومي ٢ / ٩٥-٩٦ . (غدا) .

(٦) تفسير البيضاوي ٣٧٢/٥ . تفسير أبي السعود ١٥/٩ .

(٧) الشوكاني ١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ

محمد بن علي بن محمد اليمني ، فقيه مجتهد ، نشأ بصنعاء وولي قضاءها
وله ١١٤ مؤلفاً .

البدر الطالع للشوكاني ٢/٢١٤-٢٢٥ .

الشرط محذوف ، أي إن كنتم صارمين فاغدوا^(١)
﴿حرثكم﴾ قال مجاهد^(٢) : كان حرثهم عنباً^(٣)
وقال البغوي : الثمار والزروع والأعناق^(٤)
﴿إن كنتم صارمين﴾ أي تريدون الصرام^(٥) صارمين
قاطعين له^(٦) صارمين : حاصدي زرعكم^(٧) .
وقيل معنى صارمين : ماضين في العزم ، من قولك
سيف صارم^(٨)

والمعنى : فاستيقظوا من نومهم فنادى بعضهم بعضاً
قائلين: اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين أي باكروا إلى
بستانكم فاصرموه قبل أن يرتفع النهار ، ويكثر السؤال^(٩)
فغدا القوم في سدفه من الليل^(١٠) على جنتهم ليصرموها^(١١)

(١) تفسير الشوكاني ٢٧٢/٥ .

(٢) مجاهد ٢١-١٠٤ هـ .

مجاهد بن جبر ، أبو الحجاج ، المكي تابعي شيخ القراء والمفسرين العالم الحبر .

حلية الأولياء ٣/ ٢٧٩ ترجمة ٢٤٣ . صفة الصفوة ٢/ ١٢٣ .

(٣) تفسير الطبري ٢٩/٢٩ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٨٠ ثم ذكر النخل فقال صارمين قاطعين للنخل .

(٥) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٠٧ .

(٦) تفسير البيضاوي ٥/ ٣٧٢ .

(٧) تفسير الطبري ٢٩/٢٩ .

(٨) تفسير الشوكاني ٢٧٢/٥ . تفسير الثعالبي ٤/ ٣٢٨ .

(٩) البداية والنهاية ٢/ ١٢٠ .

(١٠) السدف من الليل : الظلمة ، والطائفة من الليل ، أو اختلاط الضوء والظلمة معا
كوقت ما بين طلوع الفجر إلى الإسفار . المعجم المحيط ١/ ٤٢٣ مادة (سدف) .

﴿يتخافتون﴾ أي يتتاجون فيما بينهم، بحيث لا يسمعون أحداً كلامهم ، ثم فسر الله - سبحانه وتعالى عالم السر والنجوى - ما كانوا يتخافتون به فقال تعالى: ﴿فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين﴾ أي يقول بعضهم لبعض: لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم^(١)

قال البيضاوي : يتخافتون يتشاورون فيما بينهم ،
وخفي وخفت وخفد بمعنى الكتم ، ومنه الخفدود :
الخفاش^(٢)

وقال الشوكاني : يقال خفت يخفت : إذا سكن ولم ينبس، ومنه قول دريد بن الصمة^(٣)

وإني لم أهلك ملالا ولم أمت خفاتا وكلا ظنه بي عويمر
وقيل المعنى: يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروههم
فيقصدهم كما كانوا يقصدون أباهم وقت الحصاد،

(١) تفسير ابن كثير ٤/٤٠٧. تفسير الشوكاني ٥/٢٧٢. وانظر الدر المنثور ٨/٢٥٢.

(٢) تفسير البيضاوي ٥/٣٧٢. زاد المسير ٨/٣٦٦ ابن قتيبة : يتساررون . تفسير الثعالبي ٤/٢٢٨ تفسير أبي السعود ٩/١٥. تفسير الواحدي ٢/١١٢٢.

والخفاش : حيوان ثديي يطير ، وجسمه يشبه جسم الفأر ، وتتركب أجنحته من جلد منبسط رقيق ، يمتد بين الأطراف الأمامية والخلفية ، وينام طول الشتاء . دائرة معارف الناشئين ١٤٨.

(٣) دريد بن الصمة المتوفى سنة (٨هـ)

الجشمي البكري ، من هوازن ، شجاع من الأبطال ، من الشعراء المعمرين في الجاهلية غزا نحو مئة غزوة لم يهزم في واحدة منها ، الأغاني ١٠/٣-٤٠. وشرح الشواهد ٣١٧.

والأول أولى - وهو أنهم يسرون الكلام بينهم لئلا يعلم أحد بهم - لقوله: ﴿أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾ ، فإن أن هي المفسرة للتخافت المذكور لما فيه من معنى القول ، والمعنى يسر بعضهم إلى بعض هذا القول ، وهو لا يدخل هذه الجنة اليوم عليكم مسكين فيطلب منكم أن تعطوه منها ما كان يعطيه أبوكم^(١)

وقال قتادة : فانطلقوا ، فمضوا إلى حرثهم وهم يتسارون بينهم^(٢)

﴿أَنْ﴾ أن مفسرة ، وقرئ بطرحها على احتمال القول والمراد بنهي المساكين عن الدخول المبالغة في النهي عن تمكينهم من الدخول كقولهم : لا أرينك ها هنا^(٣)

﴿حرد﴾ فيه ثمانية أقوال بل أكثر:

أحدها : على قدرة ، قاله ابن عباس.

والثاني : على فاقة ، قاله الحسن في رواية.

والثالث : على جد ، قاله الحسن في رواية ، وكتادة ، وأبو العالية^(٤) والفراء ومقاتل

والرابع: على أمر مجمع قد أسسوه بينهم ، قاله

(١) تفسير الشوكاني ٢٧٢/٥.

(٢) تفسير الطبري ٣١/٢٩ .

(٣) تفسير البيضاوي ٢٧٢/٥ . تفسير أبي السعود ١٥٠/٩

(٤) أبو العالية المتوفى سنة (٩٠هـ)

رفيع بن مهران الرياحي ، ثقة كثير الإرسال . تقريب التهذيب لابن حجر ١/ ٢٥٢ ترجمة ١٠٥ .

مجاهد ، وعكرمة.

والخامس : أن الحرد اسم الجنة ، قاله السدي ،

والسادس : أنه الحنق والغضب على المساكين ، قاله
الشعبي ، وسفيان ^(١) وأنشد أبو عبيد ^(٢) :

أسود شرى لاقت أسوداً خفية

تساقوا على حرد دماء الأساود

والسابع : أنه المنع ، مأخوذ من حارَدَت السنّة فليس
فيها مطر ، وحاردت الناقة فليس فيها لبن ، قاله أبو
عبيدة ^(٣) وابن قتيبة ^(٤)

والثامن: أنه القصد ، يقال حَرَدَت حردك: أي قصدت

(١) سفيان الثوري ٩٧-١٦١هـ

سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ، أبو عبد الله أمير المؤمنين في الحديث ، له
الجامع الكبير ، والجامع الصغير في الحديث ،
الفهرست لابن النديم ٢٢٥/١ . الجواهر المضية ٢٥٠/١ .

(٢) أبو عبيد ١٥٧-٢٢٤هـ .

القاسم بن سلام البغدادي القاضي ، أحد الأعلام ، قال ابن راهويه : أبو عبيد أوسعنا علماً ،
وأكثرنا أدباً ، وأكثرنا جمعاً ، إنا نحتاج إلى أبي عبيد ، وأبو عبيد لا يحتاج إلينا .
طبقات الحفاظ ص ١٨٢ ترجمة ٤٠٣ . تهذيب التهذيب ١٤٥/١٥ ترجمة ٥٣٧٨ .

(٣) أبو عبيدة ١١٠-٢٠٩هـ .

معمّر بن المشي التيمي بالولاء ، من أئمة العلم بالأدب واللغة ، قال الجاحظ لم يكن في
الأرض أعلم بجميع العلوم منه . ولد وتوفي بالبصرة . له نحو من (٢٠٠) مائتي مؤلف .
وفيات الأعيان ١٠٥/٢ . بغية الوعاة ٣٩٥ .

(٤) ابن قتيبة ٢١٣-٢٧٦هـ .

عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، أبو محمد ، من أئمة الأدب ، من المكثرين من
التصنيف ، ولد وتوفي ببغداد ، له تأويل مختلف الحديث ، وأدب الكاتب .

وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٥١/١ . لسان الميزان ٣٥٧٠/٣ .

قصده ، حكاة الفراء وابو عبيد وابن قتيبة ، وأنشدوا :

قد جاء سيل كان من أمر الله

يحرده حرد الجنة المغله

أي يقصد قصدها

قال ابن قتيبة : وفيها لغتان : حَرْدٌ وَحَرْدٌ ، كما يقال :
الدَّرْكُ والدَّرْكُ^(١)

قال ابن الأعرابي^(٢) : والسكون أكثر^(٣)
(قلت) :

والتاسع : على حرد أي على نكد .

والمعنى : أنهم عزموا أن يتكدوا على المساكين فتكده
عليهم بحيث لا يقدرّون على الانتفاع ، وقيل الحَرْدُ بمعنى
الحَرْدُ ، وقرئ به ، أي لم يقدرّوا إلا على حنق بعضهم
لبعض كقوله يتلاومون .

وقيل الحرد : القصد والسرعة ... أي اغدوا إلى

(١) زاد المسير ٣٣٨/٨ .

(٢) ابن الأعرابي ١٥٠-٢٢١هـ

محمد بن زياد ، أبو عبد الله ، راوية ، ناسب ، عازف باللغة ، كان يحضر
مجلسه نحو مائة إنسان ، له تصانيف كثيرة منها أسماء الخيل وفرسانها ، وتأريخ
القبائل .

وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٩٢/١ / تأريخ بغداد للخطيب ٢٨٢/٥ .

(٣) المصباح المنير ١/ ١٣٩ (حرد)

جنتكم بسرعة^(١)

(قلت): وعلى هذا يكون العاشر: السرعة.

قال ابن كثير : وغدوا على حرد أي قوة وشدة.

وقال مجاهد : على حرد : على جد .

وقال عكرمة: على غيظا.

وقال الشعبي^(٢) : على حرد على المساكين.

وقال السدي على حرد أي كان اسم قريتهم حرد،

فأبعد السدي في قوله^(٣) .

(٤) ونقل الشوكاني عن السدي أن (حرد) اسم لجنتهم

﴿قادرين﴾ فيها ثلاثة أقوال:

(١) تفسير البيضاوي ٣٧٢/٥. تفسير الواحي ١١٢٢/٢ : قصد وجد .

(٢) الشعبي ١٩-١٠٣هـ

عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الحميري ، أبو عمرو ، راوية من التابعين ، يضرب المثل بحفظه ، وهو ثقة .

تأريخ بغداد للخطيب ١٢ / ٢٢٧. وفيات الأعيان لابن خلكان ١ / ٢٤٤.

(٣) تفسير ابن كثير ٤ / ٤٠٧. وفي تفسير الشوكاني ٢٧٢/٥ معان كثيرة للحرد . البداية والنهاية ٢ / ١٢٠. تفسير الثعالبي ٤ / ٣٢٨

(٤) تفسير الشوكاني ٢٧٢/٥. وقد جمع البغوي في تفسيره ٤ / ٣٨٠. هذه الأقوال وغيرها فقال : وغدوا على حرد ، الحرد في اللغة يكون بمعنى القصد ، والمنع ، والغضب ، قال الحسن وقتادة وأبو العالية : على جد وجهد ، وقال القرظي ومجاهد وعكرمة : على أمر مجتمع قد أسسوه بينهم ، وهذا على معنى القصد : لأن القاصد إلى الشيء جاد مجمع على الأمر ، وقال أبو عبيدة والقتيبي : غدوا من بيتهم على منع المساكين ، يقال حاردت السنة إذا لم يكن لها مطر ، وحاردت الناقة إذا لم يكن لها لبن ، وقال الشعبي وسفيان على حرق وغضب من المساكين ، وعن ابن عباس على قدرة قادرين .

أحدها : قادرين على جنتهم عند أنفسهم ، قاله قتادة

والثاني : قادرين على المساكين ، قاله الشعبي .

والثالث : أن المعنى منعوا وهم قادرون أي واجدون ،
قاله ابن قتيبة^(١) أي عليها فيما يزعمون ويرومون^(٢) .

ويحتمل أن يكون من التقدير^(٣) الذي هو تضيق ،
كأنهم قد قدروا على المساكين أي ضيقوا عليهم^(٤)

قال أبو السعود في تفسيره : والمعنى أنهم أرادوا أن
يتنكدوا على المساكين ويحرموهم ، وهم قادرون على
نفعهم ، فغدوا بحال لا يقدرّون فيها إلا على النكد
والحرمان ، وذلك أنهم طلبوا حرمان المساكين ، فتعجلوا
(لأنفسهم) الحرمان والمسكنة ، أو وغدوا على محاردة
جنتهم وذهاب خيرها قادرين ، بدل كونهم قادرين على
إصابة خيرها ومنافعها ، أي غدوا حاصلين على النكد
والحرمان ، مكان كونهم قادرين على الانتفاع .

وقيل الحَرْدُ الحَرْدُ ، وقد قرئ بذلك ، أي لم يقدرّوا
إلا على حنق بعضهم لبعض ، لقوله تعالى (يتلاومون) .

وقيل الحرد : القصد والسرعة ، أي غدوا قاصدين

(١) زاد المسير ٢٣٨/٨ . انظر تفسير البغوي ٤/ ٣٨٠

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٠٧ . تفسير الطبري ٢٩/ ٣٢ : أي قادرين عليه في أنفسهم .

(٣) على حَدِّ قوله تعالى (ومن قدر عليه رزقه)

(٤) تفسير الثعالبي ٤/ ٣٢٨

إلى جنتهم بسرعة ، قادرين عند أنفسهم على صرامها .

وقيل هو علم للجنة ^(١) أي اسم للجنة نفسها .

﴿ فلما رأوها ﴾ أول ما رأوها قالوا ^(٢) أي فلما وصلوا

إليها وأشرفوا وهي على الحالة التي قال الله - عز وجل -
قد استحالت على ^(٣) تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار
إلى أن صارت سوداء مدلهمة لا ينتفع بشيء منها فاعتقدوا
أنهم أخطئوا الطريق ، ولهذا قالوا إنا لضالون ^(٤)

﴿ إنا لضالون ﴾ فلما صار هؤلاء القوم إلى جنتهم

ورأوها محترقا حرثها ، أنكروها وشكوا فيها ، هل هي
جنتهم أو لا ؟ فقال بعضهم لأصحابه ظنا منه أنهم قد
أغفلوا طريق جنتهم ، وأن التي رأوها غيرها : إنا لضالون
طريق جنتنا ، فقال من علم أنها جنتهم ، وأنهم لم يخطئوا
الطريق بل نحن أيها القوم محرومون ^(٥)

قال ابن كثير : فلما رأوها أي وصلوا إليها ، ونظروا

ما حل بها ، وما قد صارت إليه من الصفة المنكرة بعد تلك

(١) تفسير أبي السعود ١٥/٩ . تفسير الواحدي ١١٢٢/٢ . قادرين عند أنفسهم على ثمر الجنة .

(٢) تفسير البيضاوي ٣٧٢/٥ . وانظر تفسير الطبري ٣٤/٢٩ . زاد المسير ٣٦٦/٨ - ٣٦٧ ذكر ثمانية معانٍ . تفسير أبي السعود ١٥/٩ : قالوا في بديهة رؤيتهم .

(٣) لعل الصواب (عن) .

(٤) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤ .

(٥) تفسير الطبري ٣٤/٢٩ . تفسير البيضاوي ٣٧٢/٥ . تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤ .
انظر تفسير البغوي ٤ / ٣٨٠ ،

النضرة والحسن والبهجة ، فانقلبت بسبب النية الفاسدة ،
فعند ذلك قالوا: إنا لضالون أي قد تهنا عنها ، وسلطنا غير
طريقها ، ثم قالوا : بل نحن محرومون ، أي بل عوقبنا
بسبب سوء قصدنا ، وحرمتنا بركة حرثنا^(١)
﴿بل نحن محرومون﴾ بعد أن تأملوا الطريق وعرفوا
أنها هي قالوا:

بل نحن محرومون ، حرمتنا خيرها لجنايتنا على
أنفسنا^(٢) أي بل هذه هي ولكن نحن لا حظ لنا ولا
نصيب^(٣) . أو قال من علم أنها جنتهم ، وأنهم لم يخطئوا
الطريق بل نحن أيها القوم محرومون : حرمتنا منفعة جنتنا
بذهاب حرثها ، قال قتادة : بل جوزينا فحرمتنا^(٤) فبل هنا
للإضراب، أي فأضربوا عن قولهم الأول إلى هذا القول^(٥)
﴿قال أوسطهم﴾ يعني أمثلهم وأعقلهم وخيرهم^(٦) قال
ابن عباس: أعدلهم ويقال قال: خيرهم.
وقال في سورة البقرة : وكذلك جعلناكم أمة وسطاً،

(١) البداية والنهاية ١٢٠/٢، الدر المنثور ٢٥٢/٨، تفسير أبي السعود ١٦/٩، تفسير
الواحي ١٢٢/٢ مخطئون طريقنا وليست هذه جنتنا .
(٢) تفسير البيضاوي ٢٧٣/٥، تفسير الواحي ١١٢٢/٢، انظر تفسير البغوي
٣٨٠ /٤ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤

(٤) تفسير الطبري ٣٤/٢٩، الدر المنثور ٢٥٢/٨ .

(٥) تفسير الشوكاني ٢٧٢/٥، تفسير أبي السعود ١٦، /٩ .

(٦) تفسير الشوكاني ٢٧٢، /٥

قال : الوسط العدل ، وقاله مجاهد ، وسعيد بن المسيب^(١)
والضحاك^(٢)

وقال قتادة : قال أوسطهم أي أعدلهم قولاً ، وكان
أسرع القوم فزَعاً ، وأحسنهم رجعة : ألم أقل لكم لولا
تسبحون^(٣) ، أو أعدلهم رأياً وسناً^(٤)

قال الثعالبي : أعدلهم قولاً وعقلاً وخلقاً^(٥) ويبدو أنه
كان له رأي غير رأيهم ، ولكنه تابعهم عندما خالفوه وهو
فريد في رأيه ، ولم يصر على الحق الذي رآه ، فناله
الحرمان الذي نالهم ، ولكنه يذكرهم ما كان من نصحه
وتوجيهه^(٦)

قال البيضاوي - وهو يعدد آراء القوم - : ومنهم من
سكت راضياً ومنهم أنكره^(٧) وهذا يدل على أن أوسطهم
كان أمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه^(٨)

(١) سعيد بن المسيب ١-٩٤هـ

سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب ، المخزومي القرشي ، أبو محمد ، سيد التابعين ، وأحد
الفقهاء السبعة . بالمدينة . وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٢٠٦. صفة الصفوة لابن الجوزي ٢/٤٤٤ .

(٢) الضحاك المتوفى ١٠٥هـ

الضحاك بن مزاحم الهلالي البلخي الخراساني أبو القاسم ، مفسر ، كان في مدرسته ثلاثة آلاف
صبي يدرسهم القرآن الكريم ، له كتاب في التفسير . العبر في خبر من غبر للذهبي ١/١٢٤ تقريب
التهذيب لابن حجر ١/٣٧٣ ترجمة ١٧ .

(٣) تفسير الطبري ٢٩/٣٤-٣٥ . تفسير ابن كثير ٤/٤٠٧ : نقل ذلك عن ابن عباس ومجاهد وسعيد
ابن جبير والربيع بن أنس والضحاك وقاتدة : أي أعدلهم وخيرهم . الدر المنثور ٨/٢٥٢ . تفسير
الواحي ٢/١١٢٣ .

(٤) تفسير البيضاوي ٥/٣٧٣ . تفسير الشوكاني ٥/٢٧٢ . تفسير أبي السعود ٩/١٦

(٥) تفسير الثعالبي ٤/٣٢٨

(٦) في ظلال القرآن سيد قطب ٦/٣٦٦ .

(٧) تفسير البيضاوي ٥/٣٧٣ .

(٨) تفسير الشوكاني ٥/٢٧٣ .

وكل شيء في كتاب الله أوسط فهو أعدل^(١)

﴿ ألم أقل ﴾ استفهام تقريرى ، أي اعترفوا أنني قلت لكم ذلك ، على حد قول الله تعالى: ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾^(٢)
﴿ ألم أقل لكم لولا ﴾ لولا أي هلا^(٣) فـ تكون للتحضيض .

﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ لولا تذكرونه وتتوبون إليه من خبث نيتكم ، وقد قاله حينما عزموا على ذلك ، ويدل على هذا المعنى ، قالوا : سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ، أي لولا تستثنون ، فسمى الاستثناء تسبيحاً لتشاركهما في التعظيم ، أو لأنه تنزيه على أن يجري في ملكه ما لا يريده^(٤)

وقيل معناه : ألم أقل لكم لولا تسبحون أي فهلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم^(٥) .
وكان بعضهم يتأول قول الله تعالى: ﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ لولا تستثنون ، وزعم أن ذلك لغة لبعض أهل

(١) الدر المنثور ٢٥٢/٨ .

(٢) الآية ٦١ سورة يس .

(٣) تفسير الشوكاني ٢٧٣/٥ .

(٤) تفسير البياضوي ٣٧٣/٥ . تفسير ابن كثير ٤/٤٠٧ : قال مجاهد والسدي وابن جريج : لولا تسبحون أي لولا تستثنون ، قال السدي : وكان استثناءؤهم في ذلك الزمان تسبيحاً ، وقال ابن جرير : هو قول القائل : إن شاء الله . تفسير أبي السعود ١٦/٩

(٥) تفسير ابن كثير ٤/٤٠٧ .

اليمن ، ويستشهد لصحة تأويله بقوله : إذ أقسموا
ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون ، قال : قال أوسطهم:
ألم أقل لكم لولا تسبحون ، فذكرهم تركهم الاستثناء^(١)
قال مجاهد وأبو صالح^(٢) وغيرهما : كان استثناؤهم
تسييحاً .

قال النحاس : أصل التسبيح التنزيه لله - عز وجل -
فجعل التسبيح في موضع إن شاء الله .

وقيل : المعنى هلا تستغفرون الله من فعلكم ، وتتوبون
إليه من هذه النية التي عزمتم عليها ، وكان أوسطهم قد
قال لهم ذلك ، وبعد مشاهدتهم للجنة على تلك الصفة
قالوا : سبحان ربنا إنا كنا ظالمين^(٣)

قال أبو السعود : ألم أقل لكم لولا تسبحون ، لولا
تذكرون الله تعالى وتتوبون إليه من خبث نيتكم ، وقد كان

(١) تفسير الطبري ١/١٥ .

(٢) أبو صالح المتوفى بعد المائة هـ .

بإدام ، أبو صالح مولى أم هانئ راوي التفسير ، يروي عن مولاته ، ضعيف مدلس .
تقريب التهذيب لابن حجر ٩٣/١ ترجمة ٢ . الخلاصة للأنصاري ٥٤ .

(٣) تفسير الشوكاني ٥/٢٧٣ . زاد المسير ٨/٣٣٨ : لولا أي هلا تسبحون ، وفيه ثلاثة
أقوال : أحدها : هلا تستثنون عند قولكم ليصرمنها مصبحين ، قاله ابن جريج
والجمهور ، والمعنى هلا قلتم إن شاء الله ، قال الزجاج : وإنما قيل للاستثناء تسبيح:
لأن التسبيح في اللغة تنزيه الله - عز وجل - عن السوء ، والاستثناء تعظيم لله
وإقرار بأنه لا يقدر أحد أن يفعل فعلاً إلا بمشيئة الله ، والثاني : أنه كان
استثناؤهم قول سبحان الله قاله أبو صالح والثالث : هلا تسبحون الله وتشكرونه
على ما أعطاكم حكاه الثعلبي .

قال لهم حين عزموا على ذلك : اذكروا الله ، وتوبوا إليه
عن هذه العزيمة الخبيثة من فوركم ، وسارعوا إلى حسم
شرها قبل حلول النقمة ، فعصوه فغيرهم ، كما ينبىء عنه
قوله تعالى: ﴿قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين﴾ وقيل :
المراد بالتسبيح الاستثناء ؛ لاشتراكهما في التعظيم أو لأنه
تنزيه له تعالى عن أن يجري في ملكه مالا يشاؤه^(١)

وقال البغوي: قال أوسطهم: أعدلهم وأعقلهم
وأفضلهم: ألم أقل لكم لولا تسبحون، هلا تستثنون، أنكر
عليهم ترك الإستثناء في قولهم: ليصرمنها مصبحين،
وسمي الاستثناء تسبيحاً؛ لأنه تعظيم لله وإقرار بأنه لا
يقدر أحد على شيء إلا بمشيئته.

وقال أبو صالح: كان استثناءهم سبحان الله.

وقيل: هلا تسبحون الله ، وتقولوا سبحان الله
وتشكرونه على ما أعطاكم.

وقيل : هلا تستغفرونه من فعلكم^(٢)

﴿قالوا سبحان ربنا﴾ أي تنزيهاً له عن أن يكون ظالماً
فيما صنع بجنتنا ، فإن ذلك بسبب ذنبنا الذي فعلناه.

وقيل: معنى تسبيحهم الاستغفار، أي نستغفر الله من

(١) تفسير أبي السعود ١٦/٩، تفسير الواحي ١١٢٣/٢ .

(٢) تفسير البغوي ٤ / ٣٨٠ .

ذنبنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا في منعنا للمساكين^(١) أتوا
بالطاعة حيث لا تنفع ، وندموا حيث لا ينجع ؛ ولهذا قالوا :
إنا كنا ظالمين^(٢)

﴿ إنا كنا ظالمين ﴾ أصل الظلم : وضع الشيء في غير
موضعه ، وفي المثل (من استرعى الذئب فقد ظلم)^(٣)
وقيد هذا التعريف ابنُ فارس بالتعدي ، فقال : وضع
الشيء في غير موضعه تعدياً^(٤)

﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ﴾ يلوم بعضهم
بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق
الجداز ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف
بالخطيئة والذنب^(٥) فإن منهم من أشار بذلك ، ومنهم من
استصوبه ، ومنهم من سكت راضياً ، ومنهم من أنكره^(٦)
وكما يتصل كل شريك من التبعة عندما تسوء العاقبة ،
ويتوجه باللوم إلى الآخرين ، هاهم أولاء يصنعون (ذلك)^(٧) .
أو يلوم بعضهم بعضاً على تفريطهم فيما فرطوا فيه من
الاستثناء ، وعزمهم على ما كانوا عليه من ترك إطعام

(١) تفسير الشوكاني ٢٧٣/٥ . زاد المسير ٢٨/٨ . تفسير البغوي ٤ / ٣٨٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤

(٣) المصباح المنير ٣٤/٢ . (ظلم)

(٤) المقاييس في اللغة لابن فارس ، ص ٦٤١ (ظلم) .

(٥) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤ . انظر تفسير الواحدي ١١٢٣/٢ .

(٦) تفسير البيضاوي ٣٧٣/٥ . تفسير الشوكاني ٢٧٣/٥ . تفسير أبي السعود ٩ / ١٦٠ .

(٧) في ظلال القرآن ٦ / ٣٦٦٦ . زاد المسير ٢٢٨/٨ ، - ٣٣٩

المساكين من جنتهم^(١)

﴿قالوا يا ويلنا﴾ ثم هاهم أولاء يتركون التلاوم
ليعترفوا جميعاً بالخطيئة أمام العاقبة الرديئة ، عسى أن
يغفر الله لهم ويعوضهم من الجنة الضائعة على مذبح
البطر والكيد والتدبير^(٢)

﴿إنا كنا طاغين﴾ أي اعتدينا وطغينا وجاوزنا الحد
حتى أصابنا^(٣) أي ما أصابنا، أو مبعدين مخالفين أمر الله
في تركنا الاستثناء والتسبيح^(٤)

طاغين: أي عاصين متجاوزين حدود الله بمنع الفقراء
وترك الاستثناء

قال ابن كيسان^(٥) أي طغينا نَعَم الله فلم نشكرها كما
شكرها أبونا من قبل ، ثم رجعوا إلى الله وسألوه أن
يعوضهم بخير منها فقالوا: عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها
لما اعترفوا بالخطيئة رجوا من الله - عز وجل - أن يبدلهم
جنة خيراً من جنتهم ﴿عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها﴾

(١) تفسير الطبري ٢٩/٣٥.

(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٦٦٦

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٤٠٧، تفسير البيضاوي ٥/٣٧٣، تفسير أبي السعود ٩/١٦.

(٤) تفسير الطبري ٢٩/٣٥.

(٥) ابن كيسان المتوفى سنة (١٤٠هـ)

صالح بن كيسان المدني ، مؤدب أبناء عمر بن عبد العزيز ، من فقهاء المدينة
الجامعين بين الحديث والفقه

تهذيب التهذيب ٤/٣٩٩. تهذيب ابن عساكر ٦/٣٧٨.

ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة ، وقد روي أنهم أبدلوا
خيراً منها^(١)

قال عبد الله بن مسعود : بلغني أن القوم أخلصوا
وعرف الله منهم الصدق ، فأبدلهم بها جنة يقال لها
الحيوان ، فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً واحداً^(٢)

قيل إنهم تعاقدوا فيما بينهم وقالوا : إن أبدلنا الله
خيراً منها لنصنعن كما صنع أبونا ، فدعوا الله وتضرعوا ،
فأبدلهم من ليلتهم ما هو خير منها .

قرأ الجمهور يبدلنا بالتخفيف ، وقرأ أبو عمرو^(٣)
وأهل المدينة بالتشديد ، وهما لغتان ، والتبديل : تغيير ذات
الشيء أو تغيير صفته ، والإبدال : رفع الشيء جملة ووضع
آخر مكانه^(٤) (قلت) التبديل من بدل المضعف ، والإبدال
من أبدل المزيد همزة في أوله .

(١) تفسير البيضاوي ٣٧٣/٥ . تفسير البغوي ٤ / ٣٨٠ : ذكر قول ابن كيسان .

(٢) تقدم ذلك عند الكلام عن الجنة ، وانظر تفسير البغوي ٤ / ٣٨١

(٣) أبو عمرو ٧٠-١٥٤هـ

زبان بن عمار التميمي المازني البصري ، من أئمة اللغة والأدب ، وأحد القراء
السبعة ،

وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٨٦/١ . غاية النهاية ٢٨٨/١ .

(٤) تفسير الشوكاني ٢٧٣/٥ . وانظر القراءتين في تفسير البيضاوي ٣٧٣/٥ . زاد
المسير ٢٣٩/٨ : فبدلهم الله جنة العنقود منها وقر بغل ، ثم ذكر القراءتين . تفسير
أبي السعود ١٦٠/٩

﴿إلى﴾ لانتهاء الغاية ، أو لتضمنها معنى الرجوع^(١)

(قلت) يعني انتهت غايتهم أن يبدلهم الله تعالى خيراً منها ، أو يكون المعنى على الوجه الآخر إنا راجعون : أي منتهون في رجوعنا إلى الله تعالى .

﴿راغبون﴾ في أن يبدلنا خيراً منها بتوبتنا من خطأ فعلنا الذي سبق منا ، إذ هلكت جنتنا^(٢) أو راغبون طالبون الخير راجون عفوه راجعون إليه .

وعدي بالى وهو إنما يتعدى بعن أو في لتضمينه معنى الرجوع^(٣)

وقيل : رغبوا في بذلها لهم في الدنيا .

وقيل احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة^(٤)

﴿كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾
أي مثل ذلك العذاب الذي بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة ، العذاب في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أكبر أعظم منه^(٥) .

(١) تفسير البيضاوي ٣٧٣/٥ . تفسير أبي السعود ١٦/٩ . قالوا : إن الله تعالى أمر جبريل (أن يقتلع تلك الجنة المحترقة فيجعلها بزغر من أرض الشام ويأخذ من الشام جنة فيجعلها مكانها .

(٢) انظر تفسير البيضاوي ٣٦/٢٩ .

(٣) تفسير الشوكاني ٢٧٣/٥ . تفسير البيضاوي ٣٧٣/٥ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤ .

(٥) تفسير البيضاوي ٣٧٣/٥ . تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤ : أي هكذا عذاب من خالف أمر الله .

يقول الطبري : يقول جل ثناؤه: كفعلنا بجنة أصحاب الجنة إذ أصبحت كالصريم بالذي أرسلنا عليها من البلاء والآفة المفسدة ، فعلنا بمن خالف أمرنا وكفر برسلنا في عاجل الدنيا ، ولعذاب الآخرة أكبر، يعني عقوبة الآخرة بمن عصى ربه وكفر به أكبر يوم القيامة من عقوبة الدنيا وعذابها ، قال ذلك ابن عباس وقتادة^(١)

﴿لو كانوا يعلمون﴾ يقول : لو كان هؤلاء يعلمون أن عقوبة الله لأهل الشرك به أكبر من عقوبته لهم في الدنيا لارتدعوا وتابوا وأنابوا ، ولكنهم بذلك جهال لا يعلمون^(٢)

﴿كذلك العذاب﴾ مثل ذلك العذاب الذي بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة ، العذاب في الدنيا .

﴿ولعذاب الآخرة أكبر﴾ أعظم منه لو كانوا يعلمون لا حترزوا عما يؤدي بهم إلى العذاب^(٣)

كذلك العذاب : جملة من مبتدأ وخبر مقدم ؛ لإفادة القصر ، والألف واللام للعهد ، أي مثل الذي بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة عذاب الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر : أعظم وأشد ، لو كانوا يعلمون أنه أكبر لا حترزوا عما يؤدي بهم إليه^(٤)

(١) تفسير الطبري ٣٦/٢٩ . تفسير الواحدي ١١٢٣/٢ .

(٢) تفسير الطبري ٣٦/٢٩ .

(٣) تفسير البيضاوي ٣٧٣، ٥ .

(٤) تفسير أبي السعود ١٧/٩ .

المبحث الحادي عشر: أحداث القصة:

كانت قصة أصحاب الجنة معروفة عند أهل مكة، والله تعالى ابتلى أهل مكة بالجوع والقحط بعد أن دعا عليهم النبي ﷺ، كما ابتلى به أصحاب الجنة.

هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة الجسيمة، وهو بعثة محمد - صلى الله عليه وسلم - إليهم فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة، ولهذا قال تعالى: ﴿إنا بلوناهم﴾ أي اختبارناهم كما بلونا أصحاب الجنة وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه^(١)

وكانت قصة أصحاب الجنة كما يلي:

كانت بأرض اليمن جنة، قيل: كانت على فرسخين من صنعاء، وكانت لرجل يؤدي حق الله منها، وكان مؤمناً، واتفق المفسرون أن أحداث القصة كانت قبل الإسلام، وذلك بعد عيسى بن مريم - عليهما السلام - أي كانت زمن الفترة التي كانت بين النبي محمد ﷺ وبين عيسى عليه السلام، وهل كان صاحب الجنة من ثقيف أو من الحضارمة أو من الحبشة؟ في ذلك خلاف بين المفسرين، كما تقدم.

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ٤٠٧ .

وكانت الجنة من النخل ، أو فيها من أنواع الثمار
والزروع.

كان هذا الرجل يأخذ من جنته قدر قوته ، وكان
يتصدق بالباقي.

وقيل: كان يترك للمساكين ما تعداه المنجل ، وما
يسقط من رؤوس النخل، وما ينتثر عند الدِّراس ، فكان
يجتمع من هذا شيء كثير.

قال ابن عباس: كانت تلك الجنة دون صنعاء
بفرسخين ، غرسها رجل من أهل الصلاح ، وكان له ثلاثة
بنين ، وكان للمساكين كل ما تعداه المنجل، فلم يجذه من
الكرم ، فإذا طرح على البساط ، فكل شيء سقط عن
البساط فهو أيضاً للمساكين، فإذا حصدوا زرعهم فكل
شيء تعداه المنجل فهو للمساكين ، فإذا درسوا كان لهم كل
شيء انتثر ، فكان أبوهم يتصدق منها على المساكين ، وكان
يعيش في ذلك في حياة أبيهم اليتامى والأرامل والمساكين،
وقيل : كان أبوهم رجلاً صالحاً ، وكان إذا بلغ ثماره أتاه
المساكين ، فلم يمنعهم من دخولها ، وأن يأكلوا منها ، وأن
يتزودوا.

فمات الرجل وصارت إلى أولاده ، فأرادوا منع الفقراء
من حقهم الذي كان يعطيه أبوهم لهم ، فقالوا : المال قليل،
والعيال كثير ، ولا يسعنا أن نفعل ما كان يفعل أبونا، بل

اتهم بعضهم أباهم بالحمق ، وبعضهم اتهمه بالخطأ ؛ لأنه يعطي هؤلاء المساكين ، وانقسموا على أنفسهم ، فكان منهم من أشار بمنع المساكين ، ومنهم من أيد المانعين، وكان منهم ذو عقل ورأي وعدل فمنعهم من ذلك العمل فلم يتردعوا ، ومنهم من سكت ، وأخيراً استقر رأي الجميع على الحرمان وبيتوا الأمر على ذلك ، ثم أقسموا بالله تعالى على أن يصرموا الجنة وقت الصباح الباكر حتى لا يجتمع عليهم المساكين ، كما أقسموا أن لا يستثنون ، وهل كان هذا الاستثناء هو أن لا يقولوا إن شاء الله ، أو هو أنهم أقسموا أن لا يستثنوا حق المساكين ؟ خلاف بين المفسرين.

ثم ناموا على هذه النية الخبيثة ، ولكن عين الله تعالى لا تنام.

فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون، وهل كان هذا الطائف ناراً أحرقتها أو أن جبريل اقتلعها ؟ خلاف.

قال القرطبي:

وكان الطائف الذي طاف عليها جبريل - عليه السلام- فاقتلعها ، فيقال إنه طاف بها حول البيت ، ثم وضعها حيث مدينة الطائف اليوم ، ولذلك سميت الطائف، وليس في أرض الحجاز بلدة فيها الشجر والأعنان ظاهراً غيرها.

المهم أنها أصبحت كالصريم ، كالليل الأسود من أثر
الاحتراق ، أو كالصريم ، أي كالصبح بيضاء لا نبت فيها ،
أو أصبحت أرضها كالرمل لا تثبت شيئاً ، كل ذلك يدل
على أنها أصبحت لا تتفع في شيء .

فاستيقظ الأولاد وقت الصباح الباكر مصممين على
تنفيذ ما اتفقوا عليه ، فتنادوا في ذلك الوقت : يقول
بعضهم لبعض أخرجوا من الصباح الباكر ولا تتأخروا عن
حرثكم وجنتكم إن كنتم ناوين قطع ثمارها .

ويبدو أن هؤلاء القوم من السذاجة بحيث إنهم لم
يفكروا في عاقبة أمرهم ، ولم يحسبوا نيتهم هذه أي
حساب ، بل تبادوا في غيهم وباطلهم إلى آخر المدى ،
فانطلقوا وهم يتخافتون ، أي على حال من التكتّم بحيث
يسر بعضهم إلى بعض القول ، يرددون ما عزموا عليه من
الليل : وهو أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وكان الأمل
في تنفيذ ما عزموا عليه يملأ قلوبهم ، والشوق إلى رؤية
الثمار وقد تجمعت عندهم يسيطر على مشاعرهم ، فلم
يعودوا يفكرون في شيء من أمرهم غير هذا ، واعتقدوا
أنهم قادرون على منع المساكين من الثمار ، وغدوا على
حرد قادرين ، أي وهم في مسيرهم المبكر كانوا يظنون أنهم
قادرون على تنفيذ إرادتهم .

وساروا وهم عازمون على ذلك .

ووصلوا الجنة وشدهوا للمفاجأة ، وذهلوا ، ما هذا ؟
ثم قالوا : أين الجنة التي كانت بالأمس موقرة بالثمار
والزروع ؟ !! لا شك أن هذه غير جنتنا ، وأنا قد ضللنا
الطريق ! ثم نظروا فوجدوا أنها هي هي جنتهم ، وأن
الطريق هو هو .

وبعد أن اطمأنوا إلى أن نيتهم السيئة كانت السبب في
كل ما حدث ، رجعوا إلى أنفسهم ، فقالوا: بل نحن
محرومون ، حرمانا خيرها بسبب ما عزمنا عليه من الشر ،
وهنا قال الذي هو أوسطهم ، وكان من ذوي العقل
والحجى ، وكان قد نصحهم قبلا أن لا يقدموا على مثل
هذا العمل السيئ ، قال لهم : ألم أقل لكم لولا تسبحون ،
هنا تذكروا فعرفوا أن الله لا تخفى عليه خافية ، وأن الله
تعالى ينتقم من الظالم فارتدعوا ، وقالوا : سبحان ربنا إنا
كنا ظالمين ، وأخذ كل واحد منهم يلقي باللائمة على
صاحبه : ﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ﴾ هذا يقول
أنت الذي أشرت بالفكرة اللعينة ، وهذا يقول بل كنت أنت
البادئ بها ، وهكذا يلوم بعضهم بعضاً ، ولكن النتيجة
واحدة وهي أنهم قد حرموا جنتهم التي كان يستفيد منها
أهلها وغيرهم ، والسبب هو هذه النية السيئة ، فلذلك
رجعوا إلى أنفسهم فقالوا : ﴿ يا ويلنا إنا كنا طاغين ﴾ .

ثم رجعوا إلى الله تعالى طالبين منه العفو عما بدر

منهم فقالوا: ﴿عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون﴾ فاستجاب الله تعالى منهم هذه الرجعة وهذا الندم فأبدلهم خيراً منها ، بحيث كان عنقود العنب من الكبر بحيث لا يحمل البغل إلا عنقوداً واحداً ،

ثم هدد الله تعالى كل من يفعل هذا الفعل فقال: كذلك العذاب في الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر، ولو كانوا يعلمون ذلك لما فعلوه.

وبمناسبة ذكر جنة الرجل الصالح، وكيف أن الله تعالى عاقب أولاده لما منعوا حق الفقراء، ثم لما بين الله تعالى أن هذا العقاب عقاب الدنيا وإن ما عنده من العذاب يوم القيامة أشد وأكبر، ذكر الله تعالى جزاء المتقين فقال: ﴿إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾.

وهكذا أسدل الستار على هذه القصة التي أراد الله تعالى أن يذكر بها الناس حتى لا يغفلوا ولا ينسوا الله تعالى ، وحتى لا يتركوا مراقبته جلّ جلاله.

الفصل الثالث : النية وما يتعلق بها من الأحكام :

وفيه تمهيد واثنان عشر مبحثاً

التمهيد:

للنية المقام الأعلى في الحكم على الأعمال ^(١)

وقبل الخوض في الموضوع نبين تعريف النية باختصار فنقول:
النية لغة:

قال ابن فارس في المقاييس: النون والواو والحرف
المعتل أصل صحيح يدل على معنيين: أحدهما : مقصدٌ
لشيءٍ ، والثاني والآخر عَجَمَ شيء . فالأول : النوى ، قال
أهل اللغة: النوى التحول من دار إلى دار ، هذا هو الأصل،
ثم حمل عليه الباب كله فقالوا: نوى الأمر ينويه ، إذا قصد
له، ومما يصح هذه التأويل قولهم: نواه الله ، كأنه قصده
بالحفظ والحيطة قال الشاعر:

يا عمرو أحسن نواك الله بالرشدِ

واقراً سلاماً على الذلفاء بالثمدِ

أي قصدك بالرشدِ .

والنية: القصد الذي تنويه، ونُويك: صاحبك

(١) انظر الأشباه والنظائر للسيوطي ص ٨. ذكر الكثير مما يتعلق بالنية في أول كتابه ، وانظر كتاب النية وأثرها في الأحكام الشرعية د/صالح بن غانم السدلان تكلم عن النية في مجلدين كبيرين . وتفسير النسفي ١٤٢/١ - ١٤٣ . جامع العلوم والحكم حديث النية .

الذي نيته نيتك . اهـ.^(١)

قال الفيومي : نويته أنويه : قصدته ، والاسم النية والتخفيف لغة حكاها الأزهري ثم خصت النية في غالب الاستعمال : بعزم القلب على أمر من الأمور اهـ.^(٢)

والنية اصطلاحاً:

لا تخرج النية اصطلاحاً عن هذا المعنى ، وإليك بعض تعريفات العلماء:

قال البيضاوي : النية عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقاً لغرض من جلب نفع أو دفع ضرر ، حالاً أو مآلاً^(٣)

وقال سعدي جيب في القاموس الفقهي : النية في الشرع: العزم على فعل الشيء تقرباً إلى الله تعالى.

وعرفها بتعريف آخر فقال: قصد الشيء مقترناً بفعله، فإن تراخى عنه سُمي عزمًا اهـ.^(٤)

وقد أورد ابن رجب الحنبلي في كتابه جامع العلوم والحكم ، والسيوطي في الأشباه والنظائر الكثير من

(١) المقاييس في اللغة ص ١٠٠٢.

(٢) المصباح المنير ٢/٣٢٠ (نوى) .

(٣) فتح الباري لابن حجر ١/١٣ . نيل الأوطار ١/١٦٣ . زاد الشوكاني : والشرع خصصه بالإرادة المتوجهة نحو الفعل لابتغاء رضا الله وامتنال حكمه . الأشباه والنظائر للسيوطي ١/٣٠ . المدخل لابن بدران ١/٤٩١ . تحفة الأحوذى ٥/٢٣٢ .

(٤) ص ٣٦٤ .

الأحاديث التي تبين قيمة النية ، ولذلك صدر كثير من المحدثين والفقهاء كتبهم بحديث النية ، حتى جعل الإمام البخاري حديث النية كالمقدمة لكتابه^(١)

وهكذا فعل النووي في أربعينه، وتبعه ابن رجب الحنبلي في كتابه جامع العلوم والحكم^(٢) فقال:

الحديث الأول عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه)^(٣) رواه البخاري ومسلم

قال ابن رجب: هذا الحديث تفرد بروايته يحيى بن سعيد الأنصاري عن محمد بن إبراهيم التيمي عن علقمة ابن أبي وقاص الليثي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. واتفق العلماء على صحته وتلقيه بالقبول، وبه صدر البخاري كتابه الصحيح، وأقامه مقام الخطبة له، إشارة منه إلى أن كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل، لا ثمرة

(١) ٢-١ كتاب بدء الوحي باب كيف بدأ الوحي

(٢) ١٢/١ .

(٣) صحيح البخاري ٣/١. صحيح مسلم ٣/١٥١٥ . صحيح ابن خزيمة ١/٧٣ . صحيح ابن حبان ٢/٥١ . سنن الترمذي ٤/١٧٩ . سنن أبي داود ٢/٢٦٢ .

له في الدنيا ولا في الآخرة ، ولهذا قال عبد الرحمن بن مهدي : لو صنفت كتابا في الأبواب لجعلت حديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في ﴿الأعمال بالنيات﴾ في كل باب.

وعنه أنه قال : من أراد أن يصنف كتاباً فليبدأ بحديث ﴿الأعمال بالنيات﴾^(١)

المبحث الأول : أقوال العلماء عن حديث النية^(٢)

بعد هذا التمهيد نبين أقوال العلماء عن قيمة حديث النية.

قال السيوطي في الأشباه والنظائر : اعلم أنه قد تواتر النقل عن الأئمة في تعظيم قدر حديث النية.

قال أبو عبيدة : ليس في أخبار النبي - صلى الله عليه وسلم - شيء أجمع وأغنى وأكثر فائدة منه.

واتفق الإمام الشافعي وأحمد بن حنبل ، وابن مهدي ، وابن المديني ، وأبو داود ، والدارقطني وغيرهم على أنه ثلث العلم ، ومنهم من قال رבעه.

ووجه البيهقي كونه ثلث العلم : بأن كسب العبد يقع

(١) جامع العلوم والحكم ١٣/١ .

(٢) انظر لأقوالهم : جامع العلوم والحكم ١٣/١-١٦ والأشباه والنظائر للسيوطي ص ٩ .

بقلبه ولسانه وجوارحه ، فالنية أحد أقسامها الثلاثة وأرجحها لأنها قد تكون عبادة مستقلة ، وغيرها يحتاج إليها ، ومن ثم ورد ﴿نية المرء خير من عمله﴾^(١) اهـ.

وقال ابن رجب الحنبلي : وهذا الحديث أحد الأحاديث التي يدور الدين عليها ، فروى عن الشافعي أنه قال : هذا الحديث ثلث العلم ، ويدخل في سبعين باباً من الفقه^(٢)

قال د/صالح السدلان في كتابه النية : وما ذكره الشافعي صحيح ، فإنه لا يخفى على أحد منزلة النية ودخولها في سائر الأعمال القولية والفعلية ، وأعمال القلوب والجوارح ، بل إنك إذا نظرت في منزلة النية ودخولها في كل عمل ، وجدت أنها نصف الدين لأن العمل مبني على قاعدتين : الإخلاص والمتابعة ، فالإخلاص تحققه النية ، والعمل التزام النص الوارد من كتاب أو سنة^(٣)

(١) تأويل مختلف الحديث ١/ ١٤٨ شعب الإيمان ٥ / ٣٤٣ ذكر الحديث ثم قال تعليقا على الحديث : سمعت أحمد بن يحيى ثعلب يقول سمعت ابن الأعرابي يقول " نية المؤمن خير من عمله " لأن النية لا يدخلها الفساد ، والعمل يدخله الفساد ، وإنما أراد بالفساد بالرياء...وقد قيل النية دون العمل قد تكون طاعة ، قال النبي - صلى الله عليه وسلم - " مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَتْ لَهُ حَسَنَةً " قالوا : والعمل دون النية لا يكون طاعة.

(٢) (قلت) بين السيوطي في الأشباه والنظائر كيف تدخل النية في سبعين بابا ، وذكرها وقال : إنها تدخل في أكثر من ذلك .

(٣) النية وأثرها في الأحكام الشرعية ١/ ٥٤ .

وعن الإمام أحمد - رضي الله عنه - قال : أصول
الإسلام على ثلاثة أحاديث:

حديث عمر ﴿إنما الأعمال بالنيات﴾

وحديث عائشة (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس
منه فهو رد)^(١)

وحديث النعمان بن بشير (الحلال بين والحرام
بين)^(٢)

وقال الحاكم : حدثونا عن عبد الله بن أحمد ، عن
أبيه أنه ذكر قوله - عليه الصلاة والسلام - (الأعمال
بالنيات).

وقوله (إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين
يوماً)^(٣)

(١) صحيح البخاري ٩٥٩/٢ . صحيح مسلم ١٣٤٣/٣ صحيح ابن حبان ٢٠٧/١ .
١١٩/١٠ .

(٢) صحيح البخاري ٢٨/١ . صحيح مسلم ١٢٢١/٣ صحيح ابن حبان ٤٩٣/٢ .
سنن الترمذي ٥١١/٣ . سنن الدارمي ٣١٩/٣ .

(٣) صحيح البخاري ١١٧٤/٣ . صحيح مسلم ٢٠٣٦/٤ عن عبد الله قال : حدثنا
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو الصادق المصدوق (إن أحدكم يجمع خلقه
في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك
مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه ،
وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد ، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل
الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار ،
فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ،
فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة ، فيدخلها (صحيح ابن حبان ٤٧/١٤ .
سنن أبي داود ٢٢٨/٤ . سنن ابن ماجه ٢٩/١ .

وقوله (من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد)
فقال: ينبغي أن يبتدأ بهذه الأحاديث في كل تصنيف، فإنها
أصول الأحاديث.

وعن إسحاق بن راهويه قال : أربعة أحاديث هي من
أصول الدين :

حديث عمر (إنما الأعمال بالنيات)

وحديث (الحلال بين والحرام بين)

وحديث (إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً)

وحديث (من صنع في أمرنا شيئاً ما ليس منه فهو رد).

وروى عثمان بن سعيد عن أبي عبيد قال : جمع النبي
- صلى الله عليه وسلم - جميع أمر الآخرة في كلمة
واحدة^(١) (من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد)
وجمع أمر الدنيا كله في كلمة واحدة (إنما الأعمال
بالنيات) وهما يدخلان في كل باب .

وعن أبي داود قال: نظرت في الحديث المسند ، فإذا
هو أربعة آلاف حديث ، ثم نظرت ، فإذا مدار أربعة آلاف
الحديث على أربعة أحاديث:

(١) تطلق الكلمة ويراد بها أحياناً الكلام كما تقول : يلقي فلان عليكم كلمة ، وهي
خطبة كاملة ، قال ابن مالك في الألفية : واحده كلمة والقول عم ■ وكلمة بها كلام
قد يؤم .

يعني قد يقصد بالكلمة كلام .

حديث النعمان بن بشير (الحلال بين والحرام بين).

وحديث عمر (إنما الأعمال بالنيات).

وحديث أبي هريرة (إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً .
وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين) الحديث ^(١) .

وحديث (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) ^(٢)
قال : فكل حديث من هذه الأربعة ربع العلم.

وعن أبي داود - رضي الله عنه - ^(٣) أيضاً قال : كتبت
عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خمسمائة ألف
حديث ، انتخبت منها ما تضمنه هذا الكتاب - يعني كتاب
السنن - جمعت فيه أربعة آلاف وثمانمائة حديث ، ويكفي
الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث :

أحدها : قوله - صلى الله عليه وسلم (إنما الأعمال
بالنيات).

(١) صحيح مسلم ٧٠٣/٢ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (أيها الناس ! إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم) وقال (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء : يا رب ! يا رب ! ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك ؟) . المستدرک للحاکم ٩١/٣ السنن الكبرى للبيهقي ٣٤٩/٣ . مصنف عبد الرزاق ١٩/٥ .

(٢) الموطأ للإمام مالك ٩٠٣/٢ . صحيح ابن حبان ٤٦٦/١ . سنن الترمذي ٥٥٨ ، /٤ . سنن ابن ماجه ١٣١٥/٢ . المعجم الأوسط ١١٢/١ . مسند أحمد ٥١١/١ . التمهيد لابن عبد البر ١٩٥/٩ .

(٣) انظر لقول أبي داود : سير أعلام النبلاء ٢١٠/١٣ تهذيب الكمال ٣٦٤/١١ .
تأريخ بغداد ٥٧/٩ . صفوة الصفوة ٦٩/٤ .

والثاني : قوله صلى الله عليه وسلم (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)^(١)

والثالث : قوله - صلى الله عليه وسلم (لا يكون المؤمن مؤمناً حتى لا يرضى لأخيه إلا ما يرضى لنفسه)^(٢).

والرابع : قوله - صلى الله عليه وسلم (الحلال بين والحرام بين).

وفي رواية أخرى عنه أنه قال : الفقه يدور على خمسة أحاديث:

(الحلال بين والحرام بين)

وقوله (لا ضرر ولا ضرار)^(٣)

وقوله (إنما الأعمال بالنيات)

وقوله (الدين النصيحة)^(٤)

وقوله (ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)^(٥)

(١) الموطأ ٩٠٣/٢ . صحيح ابن حبان ٤٦٦/١ . سنن الترمذي ٥٥٨/٤ . سنن ابن ماجه ١٣١٥/٢ . المعجم الأوسط ١١٥/١ . مسند الإمام أحمد ٢٠١/١ .

(٢) وورد بمعناه : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " صحيح البخاري ١٤/١ . سنن الترمذي ٦٦٧/٤ . سنن الدارمي ٣٩٧/٢ . مسند أحمد ١٧٦٦/٣ .

(٣) الموطأ ٧٤٥/٢ . مسند الشافعي ٢٢٤/١ . مسند أحمد ٣١٢/١ . المستدرک للحاكم ٦٦/٢ . سنن البيهقي الكبرى ١٥٨/٦ : مرسل ، مجمع الزوائد ٣٠٤:٤ . سنن ابن ماجه ٧٨٤/٣ .

(٤) صحيح البخاري ١٩/١ . صحيح مسلم ٧٤/١ . صحيح ابن حبان ٤٣٥/١٠ . سنن الترمذي ٣٢٤/٤ . مسند الإمام الشافعي ٢٢٣ . سنن أبي داود ٢٨٦/٤ .

(٥) صحيح ابن حبان ١٩٨/١ . مسند الحميدي ٤٧٧/٢ .

وفي رواية عنه قال : أصول السنن في كل فن أربعة أحاديث:
حديث عمر (إنما الأعمال بالنيات)
وحديث (الحلال بين والحرام بين)
وحديث (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)
وحديث (ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في
أيدي الناس يحبك الناس)^(١)

وللحافظ أبي الحسن طاهر بن مفوز المعافري الأندلسي:
عمدة الدين عندنا كلمات ■ أربع من كلام خير البرية
اتق الشبهات وازهد ودع ما ■ ليس يعينك واعملن بنية^(٢)
قال ابن رجب الحنبلي : فقولته - صلى الله عليه وسلم
(إنما الأعمال بالنيات) وفي رواية (الأعمال بالنيات)
وكلاهما يقتضي الحصر على الصحيح^(٣)

وبهذا نجد أن جميع هؤلاء العلماء جعلوا حديث النية
من الأحاديث التي عليها مدار الإسلام ، ولم يختلف أحد
في ذلك وإن اختلفوا في غيره ، وهذا يعطي لهذا الحديث
القيمة العظمى التي يستحقها ، كما يعطي للنية القيمة
الكبرى التي هي لها في الأحكام الشرعية . والله أعلم.

(١) المستدرک للحاکم ٣٤٨/٤ قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه . سنن ابن ماجه
١٣٧٣/٢ . لكن ضعفه في مصباح الزجاجة ٢١٠/٤ . المعجم الكبير ١٩٣/٦ . التمهيد
لابن عبد البر ٢٠١/٩ شرح النووي على صحيح مسلم ٢٧/١١ .

(٢) انظر للبيتين : جامع العلوم والحكم ١٦/١ . فتح الباري ١٢٩/١ . شرح
السيوطي لسنن النسائي ٢٤٢/٧ . نيل الأوطار ٢٢٢/٥ .

(٣) جامع العلوم والحكم ١٦/١ .

المبحث الثاني : ما هو التقدير في (إنما الأعمال بالنيات)؟

بما أن حديث النية يحتمل تقدير الصحة والكمال فلا بد من تحديد ذلك ، ومن هنا اهتم الفقهاء في التقدير لهذا الحديث.

قال البيضاوي : ولا بد من محذوف يتعلق به الجار والمجرور : فقليل : تعقد ، وتكمل ، وقيل تصح ، وقيل تحصل ، وقيل تستقر .

قال : وهذه المعاني متقاربة ، وقيل الكون المطلق ، أي كون النية مطلقة^(١)

وقد استوعب ذلك أو قاربه ابن رجب الحنبلي فقال : وقد اختلفوا في تقدير قوله : (الأعمال بالنيات).

فكثير من المتأخرين يزعم أن تقديره : الأعمال صحيحة ، أو معتبرة ومقبولة بالنيات ، وعلى هذا فالأعمال إنما أريد بها الأعمال الشرعية المفتقرة إلى النية، فأما مالا يفترق إلى نية كالعادات من الأكل والشرب واللبس وغيرها ، أو مثل رد الأمانات والمضمونات، كالودائع والغصوب، فلا يحتاج شيء من ذلك إلى نية^(٢) ، فيخص هذا كله من عموم الأعمال المذكورة ههنا .

(١) نيل الأوطار للشوكاني ١٦٣/١ .

(٢) لأنها تصح من المؤمن ومن الكافر .

وقال آخرون : بل الأعمال ههنا على عمومها ، لا يختص منها شيء ، وحكاه بعضهم عن الجمهور ، كأنه يريد به جمهور المتقدمين .

وقد وقع ذلك في كلام ابن جرير الطبري ، وأبي طالب المكي وغيرهما من المتقدمين ، وهو ظاهر كلام الإمام أحمد ، قال في رواية حنبل : أحب لكل من عمل من صلاة ، أو صيام ، أو صدقة ، أو نوع من أنواع البر ، أن تكون النية متقدمة في ذلك قبل الفعل ، قال النبي - صلى الله عليه وسلم (الأعمال بالنيات) فهذا يأتي على كل أمر من الأمور .

وقال الفضل بن زياد : سألت أبا عبد الله - يعني أحمد - عن النية في العمل ، قلت : كيف النية ؟ قال : يعالج نفسه إذا أراد عملاً لا يريد به الناس .

وقال أحمد بن داود الحربي : حدث يزيد بن هارون بحديث عمر (الأعمال بالنيات) وأحمد جالس ، فقال أحمد ليزيد : يا أبا خالد ، هذا الخناق .

وعلى هذا القول ، فقليل تقدير الكلام : الأعمال واقعة ، أو حاصلة بالنيات ، فيكون إخباراً عن الأعمال الاختيارية أنها لا تقع إلا عن قصد من العامل ، هو سبب عملها ووجودها ، ويكون قوله بعد ذلك ﴿ وإنما لكل امرئ ما نوى ﴾ إخباراً عن حكم الشرع ، وهو أن حظ العامل من

عمله نيته ، فإن كانت صالحة فعمله صالح ، فله أجره ،
وإن كانت فاسدة ، فعمله فاسد فعليه وزره ^(١) .

ويحتمل أن يكون التقدير في قوله (الأعمال بالنيات)
صالحة أو فاسدة ، أو مقبولة ، أو مردودة ، أو مثاب عليها ،
أو غير مثاب عليها بالنيات ، فيكون خبراً عن الحكم
الشرعي ، وهو أن صلاحها وفسادها بحسب صلاح النية
وفسادها ، كقوله - صلى الله عليه وسلم (إنما الأعمال
بالخواتيم) ^(٢) أي أن صلاحها وفسادها وقبولها وعدمها
بحسب الخاتمة ^(٣)

وقوله بعد ذلك (وإنما لكل امرئ ما نوى) إخبارٌ أنه لا
يحصل له من عمله إلا ما نواه به ، فإن نوى خيراً حصل له
خيرٌ ، وإن نوى به شراً حصل له شر .

وليس هذا تكريراً محضاً للجملة الأولى ، فإن الجملة
الأولى دلت على أن صلاح العمل وفساده بحسب النية
المقتضية لإيجاده ، والجملة الثانية دلت على أن ثواب
العامل على عمله بحسب نيته الصالحة ، وأن عقابه عليه
بحسب نيته الفاسدة ، وقد تكون نيته مباحة فيكون العمل
مباحاً ، فلا يحصل له ثواب ولا عقاب ، فالعمل في نفسه

(١) (قلت) ومن تدبر الكلام الماضي كله يجد أنه يتعلق بالعبادات فقط ، سواء كان كلام أحمد
أم كان كلام غيره .

(٢) صحيح ابن حبان ٥١/٢ و ٥٢/٢ . موارد الضمآن ٤٥٠/١ . المعجم الكبير للطبراني
١٤٣/٦ . مسند الشهاب ١٩٣/٢ . فيض القدير ١٧٨/٢ .

(٣) انظر جامع العلوم والحكم ١٨٠/١

صلاحه وفساده وإباحته بحسب النية الحاملة عليه ،
المقتضية لوجوده ، وثواب العامل وعقابه وسلامته بحسب
النية التي صار بها العمل صالحاً ، أو فاسداً^(١)

المبحث الثالث : معاني النية في كلام العلماء^(٢)

والنية في كلام العلماء تقع بمعنيين :

أحدهما : تمييز العبادات بعضها عن بعض^(٣) كتمييز
صلاة الظهر من صلاة العصر مثلاً ، وتمييز رمضان من
صيام غيره .

أو تمييز العبادات من العادات ، كتمييز الغسل من
الجنابة من غسل التبرد والتنظيف ونحو ذلك .

وهذه النية هي التي توجد كثيراً في كلام الفقهاء في
كتبهم .

(١) جامع العلوم والحكم ١/١٩ .

(٢) تكلم عن هذا الأمر عبد الرحمن بن رجب في جامع العلوم والحكم ١/١٩ وعنه
النقل ، كما تكلم عنه السيوطي في الأشباه والنظائر ص ١٢ . وعنه النقل في الهامش ،
وابن عابدين في رد المحتار حاشيته على الدر المختار ١/١٠٨ . وغيرهم .

(٣) الأشباه والنظائر ص ١٢ : المبحث الثالث : فيما شرعت النية لأجله ، المقصود الأهم
منها : تمييز العبادات من العادات ، وتمييز رتب العبادات بعضها من بعض : كالوضوء
والغسل يتردد بين التنظف والتبرد والعبادة ، والإمساك عن المفطرات قد يكون للحمية
والتداوي أو لعدم الحاجة إليه ، والجلوس في المسجد قد يكون للاستراحة ، ودفع المال
للغير قد يكون هبة ، أو وصلة لغرض دنيوي ، وقد يكون قربة كالزكاة والصدقة والكفارة ،
والذبح قد يكون بقصد الأكل ، وقد يكون للتقرب بإراقة الدماء ، فشرعت النية لتمييز
القرب من غيرها ،

وقال عن تمييز العبادات بعضها عن بعض : وكل من الوضوء والغسل والصلاة والصوم
ونحوها قد يكون فرضاً ونذراً ونفلاً ، والتيمم قد يكون عن الحدث أو الجنابة ، وصورته
واحدة فشرعت لتمييز رتب العبادات بعضها من بعض اهـ .

والمعنى الثاني : بمعنى تمييز المقصود بالعمل ومعناه ، وهل هو لله وحده لا شريك له ، أم لله وغيره ؟ وهذه هي النية التي يتكلم فيها العارفون في كتبهم في كلامهم على الإخلاص وتوابعه ، وهي التي توجد كثيراً في كلام السلف المتقدمين .

وقد صنف أبو بكر بن أبي الدنيا مصنفاً سماه (كتاب الإخلاص والنية) وإنما أراد هذه النية ، وهي النية التي يتكرر ذكرها في كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - تارة بلفظ النية ، وتارة بلفظ الإرادة ، وتارة بلفظ مقارب لذلك . وقد جاء ذكرها كثيراً في كتاب الله - عز وجل - بغير لفظ النية أيضاً من الألفاظ المقاربة لها ، وإنما فرّق من فرّق بين النية ، وبين الإرادة والقصد ونحوهما ؛ لظنهم اختصاص النية بالمعنى الأول الذي يذكره الفقهاء ، فمنهم من قال : النية تختص بفعل النائي ، والإرادة لا تختص بذلك ، كما يريد الإنسان من الله أن يغفر له ، ولا ينوي ذلك .

المبحث الرابع : النية في القرآن الكريم:

وقد ذكرنا أن النية في كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - وسلف الأمة إنما يراد بها هذا المعنى الثاني غالباً، فهي حينئذ بمعنى الإرادة ، ولذلك يعبر عنها بلفظ الإرادة في القرآن كثيراً ، كما في قوله تعالى: ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ آل عمران - ١٥٢ وقوله - عز وجل: ﴿تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾ ٦٧ - الأنفال.

وقوله تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ ١٥-هود.

وقوله تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾ ١٨ - الإسراء

وقد يعبر عنها في القرآن بلفظ الابتغاء ، كما في قوله تعالى: ﴿إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾ ٢٠ - الليل.

وقوله تعالى: ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم﴾ ٢٦٥ - البقرة . وقوله تعالى: ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾ ٢٦٥ - البقرة . وقوله: ﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ ١١٤ - النساء.

فنفى الخير عن كثير مما يتاجى الناس به ، إلا في

الأمر بالمعروف ، وخص من أفراد الصدقة والإصلاح بين الناس لعموم نفعهما ، فدل ذلك على أن التناجي بذلك خير.

وأما الثواب عليه من الله فخصه بمن فعله ابتغاء مرضاة الله ، وإنما جعل الأمر بالمعروف من الصدقة والإصلاح بين الناس وغيرهما خيراً ، وإن لم يبتغ به وجه الله لما يترتب على ذلك من النفع المتعدي ، فيحصل به للناس إحسان وخير.

وأما بالنسبة إلى الأمر ، فإن قصد به وجه الله وابتغاء مرضاته كان خيراً له ، وأثيب عليه ، وإن لم يقصد ذلك لم يكن خيراً له ولا ثواب له عليه ، وهذا بخلاف من صلى وصام ، وذكر الله يقصد بذلك عرض الدنيا ، فإنه لا خير له فيه بالكلية ؛ لأنه لا نفع في ذلك لصاحبه ؛ لما يترتب عليه من الإثم فيه ، ولا لغيره ؛ لأنه لا يتعدى نفعه إلى أحد ، اللهم إلا أن يحصل لأحد اقتداء به في ذلك .

المبحث الخامس : النية في السنة

ذكر السيوطي في الأشباه^(١) أحاديث كثيرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - تحدث فيها - عليه الصلاة والسلام - عن قيمة النية بالنسبة للعمل ، كما ذكر ابن رجب الحنبلي مثل ذلك^(٢)

ومما قال: وأما ما ورد في السنة وكلام السلف من تسمية الإرادة وما شاكلها بالنية فكثير جداً:

ففي حديث عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: (من غزا في سبيل الله ولم ينو إلا عقالا فله ما نوى)^(٣)

وخرج الإمام أحمد من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (إن أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش ، ورب قتل بين صفين الله أعلم بنيته)^(٤)

ومن حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - عن

(١) الأشباه والنظائر للسيوطي ص ٨-٩ .

(٢) جامع العلوم والحكم ٢٢/١ وما بعدها .

(٣) الأحاديث المختارة ٣٥٨/٨ حسنه . سنن البيهقي الكبرى ١٧/٢ . سنن النسائي (المجتبى) ٢٤/٦ . الترغيب والترهيب للمنذري ١٩٥/٢ . الفردوس بمأثور الخطاب ٥٥٣/٣ .

(٤) مجمع الزوائد للهيثمي ٣٠٢/٥ : والظاهر أنه مرسل ورجاله ثقات . مسند الإمام أحمد ٣٩٧/١ . فتح الباري لابن حجر ١٩٤/١٠ . نوادر الأصول في أحاديث الرسول ٢٣١/٤ .

النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (يحشر الناس على نياتهم)^(١)

ومن حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (إنما يبعث الناس على نياتهم)^(٢)

وفي صحيح مسلم عن أم سلمة - رضي الله عنها - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (يعوذ عائذ بالبيت ، فيبعث إليه بعث ، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم) فقلت : يا رسول الله ، فكيف بمن كان كارهاً؟ قال: (يخسف به معهم ، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته)^(٣)

وفيه أيضاً عن عائشة - رضي الله عنها - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - معنى هذا الحديث ، وقال فيه: (يهلكون مهلكاً واحداً ، ويصدرون مصادر شتى ويبعثهم الله على نياتهم)

وخرج الإمام أحمد من حديث زيد بن ثابت - رضي

(١) مسند الإمام أحمد ٣٩٢/٢ . سنن ابن ماجه ١٤١٤/٢ . فيض القدير ٧/٣ :
إسناده حسن .

(٢) المراجع نفسها

(٣) صحيح مسلم ٢٢٠٨/٤ . صحيح ابن حبان ١٥٧/١٥ . المستدرک للحاکم ٤٧٥/٤
المعجم الكبير للطبراني ٣٢١/٢٣ . عون المعبود ٢٥٦/١١ . تحفة الأحمدي ٣٢٧/٦ .
المحلى لابن حزم ٤٠٧/١١ .

الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (من كانت همه الدنيا ، فرق الله شمله) وفي لفظ (أمره وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة)^(١) فيه ضعف.

وفي الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (إنك لن تتفق نفقة تبغى بها وجه الله إلا أثبت عليها حتى اللقمة تجعلها في امرأتك)^(٢)

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: (لا ينفع قول إلا بعمل ، ولا ينفع قول ولا عمل إلا بنية ، ولا ينفع قول ولا عمل ولا نية إلا بما وافق السنة)^(٣)

وذكر السيوطي أحاديث كثيرة في الأشباه والنظائر من ذلك:

عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله - صلى الله

(١) مسند الإمام أحمد ١٨٣/٥ . سنن أبي داود ١٢٧/٢ . سنن الترمذي ٦٤٢/٤ . صحيح ابن حبان ٤٥٥/٢ . موارد الضمان ٤٧/١ ضعفه . المعجم الكبير للطبراني ١٥٤/٥ التمهيد لابن عبد البر ٢٧٦/٢١ . سنن الدارمي ٨٦/١ . جامع العلوم والحكم ٢٦/١ .

(٢) صحيح البخاري ٣٠/١ صحيح مسلم ١٢٥١/٣ . صحيح ابن حبان ٣٨٣/١٣ موطأ الإمام مالك ٧٦٣/٢ .

(٣) الجرح والتعديل ٥١٤/٢ . تهذيب الكمال ٢١٧/٢٩ . جامع العلوم والحكم ٢٤/١ قال : بإسناد ضعيف .

عليه وسلم - يقول: (إن الله - عز وجل - يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب في صنيعته الخير ، والرامي به ، ومنبله ، وارموا ، واركبوا ، وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا ، ليس من اللهو ^(١) إلا ثلاث : تأديب الرجل فرسه ، وملاعبته أهله ، ورميه بقوسه ونبله ، ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه فإنها نعمة تركها ^(٢) أو قال كفرها)

وعن عمرو بن دينار أن بني صهيب قالوا لصهيب : يا أبانا إن أبناء أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - يحدثون عن آبائهم ؟ فقال : سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: (من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) ^(٣) وسمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: (أيما رجل تزوج امرأة فنوى أن لا يعطيها من صداقها شيئا ، مات يوم يموت وهو زان ، وأيما رجل اشترى من رجل بيعة فنوى أن لا يعطيها من ثمنه شيئا ، مات يوم يموت وهو خائن والخائن في النار) ^(٤)

(١) أي لا يباح شيء من اللهو إلا ثلاث .

(٢) المستدرك للحاكم ١٠٢/٢ قال : وله شاهد على شرط مسلم . سنن أبي داود ١٣/٣ . سنن النسائي (المجتبى) ٢٢٢/٦ . سنن البيهقي الكبرى ١٣/١٠ . مسند الإمام أحمد ١٤٨/٤ . فتح الباري لابن حجر ٥٤٥/١ . المعجم الكبير للطبراني ٣٤٠/١٧ .

(٣) صحيح ابن خزيمة ٥٢/١ . صحيح مسلم ١٠/١ صحيح ابن حبان ٢١٤/١ .

(٤) المعجم الكبير للطبراني ٣٥/٨ . وعن ميمون الكردي عن أبيه قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر أو كثر ليس في نفسه أن يؤدي إليها حقها خدعها فمات ولم يؤد إليها حقها لقي الله يوم القيامة وهو زان ، وأيما رجل استدان ديناً لا يريد أن يؤدي إلى صاحبه حتى أخذ ماله فمات ولم يؤد إليه دينه لقي الله وهو سارق رواه الطبراني في الأوسط والصغير ورجاله ثقات فيض القدير ١٤٠/٣ .

وعن أبي أمامة - رضي الله عنه - مرفوعاً (من تداين بدين ، وفي نفسه وفاؤه ثم مات تجاوز الله عنه ، وأرضى غريمه بما شاء ، ومن تداين بدين ، وليس في نفسه وفاؤه ، ثم مات اقتص الله - عز وجل - لغريمه يوم القيامة)^(١)

وفي رواية : (من ادان ديناً وهو ينوي أن يؤديه ومات ، أداه الله عنه يوم القيامة ومن استدان ديناً وهو لا ينوي أن يؤديه ، فمات قال الله - عز وجل - له يوم القيامة (ظننت أني لا آخذ لعبدي بحقه ، فيؤخذ من حسناته فيجعل في حسنات الآخر ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات الآخر فيجعل عليه)

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : (من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله)^(٢)

(١) المستدرک للحاکم ٢٨/٢ المعجم الكبير ٣٧١/٢ نقل أحاديث صحيحة في الموضوع نفسه .

(٢) صحيح البخاري ٥١٨/٢ و ٨٤١/٢ . سنن البيهقي الكبرى ٣٥٤/٥ . سنن ابن ماجه ٨٠٦/٢ . مسند الإمام أحمد ٢/٢٦١

المبحث السادس : أقوال العلماء في النية ^(١) :

لما كانت النية أساس العمل فلا بد من أن يهتم بها العلماء اهتماماً كبيراً ، ولذلك جاءت أقوال العلماء محذرة من سوء النية ومن الفاسد من الطوية ، وإليك بعضاً من أقوالهم :

قال ابن المبارك سمعت جعفر بن حيان يقول : ملاك هذه الأعمال النيات ، فإن الرجل يبلغ نيته ما لا يبلغ بعمله ^(٢)

وكتب معاوية - رضي الله عنه - إلى عائشة - رضي الله عنها - أن اكتبني إلي بكتاب توصيني فيه ولا تكثري علي ، فكتبت : من عائشة إلى معاوية ، سلام عليك ، أما بعد : فإنني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : (من التمس رضى الله بسخط الناس ، كفاه الناس ، ومن التمس رضى الناس بسخط الله - عز وجل - وكله الله - عز وجل - إلى الناس) ، والسلام عليك ^(٣)

وعن حميد بن نعيم أن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان - رضوان الله عليهما - دُعيا إلى طعام فأجابا ، فلما خرجا قال عمر لعثمان : لقد شهدت طعاماً وددت أني لم

(١) ستأتي آثار كثيرة أكثرها بل كلها من جامع العلوم والحكم

(٢) الزهد لابن المبارك ٦٣/١ .

(٣) صحيح ابن حبان ٥١٠/١ . الزهد لابن المبارك ٦٦/١ .

أشهدده ، قال : وما ذاك ؟ قال : خشيت أن يكون جعل
مباهاة^(١)

وعن حجاج بن شداد أنه سمع عبيد الله بن أبي
جعفر، أو قال عبد الله - وكان أحد الحكماء - يقول في
بعض قوله : إذا كان المرء يحدث في المجلس فأعجبه
الحديث فليسكت ، وإذا كان ساكتا فأعجبه السكوت
فليحدث^(٢)

وقال زيد بن الحباب : سمعت سفیان - يعني الثوري -
يقول : لو علمت أن أحداً يطلبه بنية - يعني الحديث -
لاتبعته حتى أحدثه في بيته^(٣)

وعن بشر بن الحارث قال : أنبأنا حماد بن زيد قال :
استغفر الله ، إن لذكر الإسناد في القلب خيلاء^(٤)

ونقل ابن رجب عن بعض العارفين بحقيقة النية أقوالا
لها قيمتها في النية أنقلها للفائدة :

عن يحيى بن أبي كثير قال : تعلموا النية ، فإنها أبلغ
من العمل .

وعن زيد الشامي قال : إني لأحب أن تكون لي نية في

(١) الزهد لابن المبارك ٦٦/١ - ٦٧ .

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي ١ / ٣٣٨ . الزهد لابن
المبارك ٦٧/١ .

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي ١ / ٣٣٨ .

(٤) المرجع نفسه .

كل شيء حتى في الطعام والشراب . وعنه أنه قال : انو
في كل شيء تريد الخير حتى خروجك إلى الكناسة^(١)

وعن داود الطائي قال : رأيت الخير كله إنما يجمعه
حسن النية ، وكفاك بها خيراً ، وإن لم تنصب^(٢)

قال داود : والبرُّ همة التقى ، ولو تعلقت جميع
جوارحه بحب الدنيا لردته يوماً نيته إلى أصله^(٣)

وعن سفيان الثوري قال : ما عالجت شيئاً أشد علي
من نيتي؛ لأنها تتقلب علي^(٤)

وعن يوسف بن أسباط قال : تخلص النية من
فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد^(٥)

وقيل لنافع بن جبير : ألا تشهد الجنابة ؟ قال : كما
أنت حتى أنوي ، قال : ففكر هنيهة ثم قال : امض .

وعن مطرف بن عبد الله قال : صلاح القلب بصلاح
العمل، وصلاح العمل بصلاح النية^(٦)

وعن بعض السلف قال : من سره أن يكمل له عمله ،

(١) ستأتي آثار كثيرة أكثرها بل كلها من جامع العلوم والحكم ٢٤/١ .

(٢) أي النية هي ذاتها خير وهي بدون تعب .

(٣) جامع العلوم والحكم ٢٤/١ .

(٤) فتح الباري لابن حجر ٢٩٣/٤ . حلية الأولياء للأصفهاني ١١٦/٣ . سير أعلام
النبلاء للذهبي ٦٣/٧ . نيل الأوطار للشوكاني ٣٢٤/٥ .

(٥) جامع العلوم والحكم ١٣/١ .

(٦) حلية الأولياء للأصفهاني ١٩٩/٢ . جامع العلوم والحكم ١٣/١ .

فليحسن نيته فإن الله - عز وجل - يأجر العبد إذا حسن نيته حتى باللقمة^(١)

وعن ابن المبارك قال : رب عمل صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تصغره النية .

(قلت) فجعل ابن المبارك للنية الفضل الكبير في تعظيم العمل وتحقيره ، وتكبيره وتصغيره ، فهو عمل واحد ، وإنما يكبر ويصغر بالنية .

وقال ابن عجلان : لا يصلح العمل إلا بثلاث : التقوى لله ، والنية الحسنة ، والإصابة .

وقال الفضيل بن عياض : إنما يريد الله - عز وجل - منك نيتك وإرادتك .

وعن يوسف بن أسباط قال : إثارة الله - عز وجل - أفضل من القتل في سبيل الله^(٢)

خرج ذلك كله ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص والنية^(٣)

وروى فيه بإسناد منقطع عن عمر قال : أفضل الأعمال أداء ما افترض الله - عز وجل - والورع عما حرم

(١) الزهد لابن المبارك ٥٤٢/١ .

(٢) جامع العلوم والحكم ٢٥/١ .

(٣) لابن أبي الدنيا كتب كثيرة ، وقد طبع كتاب من خمسة مجلدات باسم موسوعة كتب ابن أبي الدنيا ، وليس فيها كتاب الإخلاص والنية . لذلك فقد نقلتها من كتاب جامع العلوم والحكم .

الله - عز وجل - وصدق النية فيما عند الله - عز وجل .
وقال الفضيل: في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيَكُمَ أَحْسَنُ
عَمَلًا﴾ ٢ - الملك ، قال : أخلصه وأصوبه .

وقال : إن العمل إذا كان خالصاً ، ولم يكن صواباً ، لم
يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً ، لم يقبل حتى
يكون خالصاً وصواباً .

قال : والخالص إذا كان لله - عز وجل - والصواب إذا
كان على السنة .

وقد دل على هذا الذي قاله الفضيل قوله - عز وجل :
﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ، وَلَا
يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ١١٠ - الكهف^(١)

وقال بعض العارفين : إنما تفاضلوا بالإرادات ، ولم
يتفاضلوا بالصوم والصلاة^(٢)

(١) جامع العلوم والحكم ٢٦/١ - ٢٧ .

(٢) جامع العلوم والحكم ٢٧،/١

المبحث السابع : بيان معنى (فمن كانت هجرته إلى الله)^(١) .

قوله ﴿فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله﴾

الهجرة : الترك ، والهجرة إلى الشيء الانتقال إليه عن غيره .
وفي الشرع : ترك ما نهى الله عنه .

وقد وقعت في الإسلام على وجوه :

١- الهجرة إلى الحبشة

٢- والهجرة إلى المدينة

٣- وهجرة القبائل

٤- وهجرة من أسلم من أهل مكة

٥- وهجرة من كان مقيماً بدار الكفر

٦- والهجرة إلى الشام في آخر الزمان عند ظهور الفتن

٧- وأخرج أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو قال :

سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول :
(سيكون هجرة بعد هجرة ، فخير أهل الأرض ألزمهم
مهاجر إبراهيم ، ويبقى في الأرض شرار أهلها)^(٢)

(١) أنظر فتح الباري ١٤/١ . جامع العلوم والحكم ٢٧/١ . نيل الأوطار ١٦٣/١ .

(٢) سنن أبي داود ٤ / ٣ . نيل الأوطار للشوكاني ١٦٤/١ . مسند أحمد ١٩٨/٢ . قال عبد الله : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : (أنها ستكون هجرة بعد هجرة ، ينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها تلفظهم أرضوهم تقذرهم نفس الله تحشرهم النار مع القردة والخنازير تببت معهم إذا باتوا وتقبل معهم إذا قالوا وتاكل من تخلف) وفي عون المعبود ٢٣٩ / ٧

قال : قال ابن القيم في كتاب الهدى النبوي : ومنع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من إقامة المسلم بين المشركين إذا قدر على الهجرة من بينهم وقال : (أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين) قيل : يارسول الله ولم ؟ قال : (لا تراءى ناراها) وقال : (من جامع مع المشرك وسكن معه فهو مثله) وقال : (لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها) وقال : (ستكون هجرة بعد هجرة ، فخير أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم ويبقى في الأرض شرار أهلها يلفظهم أرضوهم تقذرهم نفس الله ، ويحشرهم الله مع القردة والخنازير) انتهى .

وقال ابن رجب الحنبلي ، وابن حجر في فتح الباري
وغيرهما :

قوله - صلى الله عليه وسلم - (فمن كانت هجرته
إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت
هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما
هاجر إليه) لما ذكر - صلى الله عليه وسلم - أن الأعمال
بحسب النيات ، وأن حظ العامل من عمله نيته من خير أو
شر - وهاتان كلمتان جامعتان وقاعدتان كليتان لا يخرج
عنهما شيء - ذكر بعد ذلك مثالا من الأمثال والأعمال التي
صورتها واحدة ، ويختلف صلاحها وفسادها باختلاف
النيات ، وكأنه يقول : سائر الأعمال على حذو هذا المثال .

وأصل الهجرة : هجران بلد الشرك ، والانتقال منه
إلى دار الإسلام ، كما كان المهاجرون قبل فتح مكة
يهاجرون منها إلى مدينة النبي - صلى الله عليه وسلم -
وقد هاجر من هاجر منهم قبل ذلك إلى أرض الحبشة إلى
النجاشي فأخبر - صلى الله عليه وسلم - أن هذه الهجرة
تختلف باختلاف المقاصد والنيات بها ، فمن هاجر إلى دار
الإسلام حباً لله ورسوله ، ورغبة في تعلم دين الإسلام
وإظهار دينه ، حيث كان يعجز عنه في دار الشرك - فهذا
هو المهاجر إلى الله ورسوله حقاً ، وكفاه شرفاً وفخراً أن

حصل له ما نواه من هجرته إلى الله ورسوله، ولهذا المعنى اقتصر في جواب هذا الشرط على إعادته بلفظه ؛ لأن حصول ما نواه بهجرته نهاية المطلوب في الدنيا والآخرة ، ومن كانت هجرته من دار الشرك إلى دار الإسلام ليطلب دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها في دار الإسلام ، فهجرته إلى ما هاجر إليه من ذلك ، فالأول تاجر ، والثاني خاطب، وليس بواحد منهما مهاجر.

وفي قوله: ﴿إلى ما هاجر إليه﴾ تحقير لما طلبه من أمر الدنيا ، واستهانة به ، حيث لم يذكر بلفظه .

وأيضا إن الهجرة إلى الله ورسوله واحدة ، فلا تعدد فيها ، فلذلك أعاد الجواب فيها بلفظ الشرط ، والهجرة لأمر الدنيا لا تنحصر : فقد يهاجر الإنسان لطلب دنيا مباحة تارة ، ومحرمة تارة ، وأفراد ما يقصد بالهجرة من أمور الدنيا لا تنحصر، فلذلك قال (فهجرته إلى ما هاجر إليه) يعني كائنا ما كان ، وقد روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى: ﴿إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنوهن﴾ الممتحنة - ١٠ قال: كانت المرأة إذا أتت النبي - صلى الله عليه وسلم- حلفها بالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما

خرجت إلّا حباً لله ورسوله^(١)

وقد روى وكيع في كتابه عن الأعمش ، عن شقيق - هو أبو وائل - قال : خطب أعرابي من الحي امرأة يقال لها أم قيس ، فأبّت أن تتزوجه حتى يهاجر ، فهاجر فتزوجته ، فكنا نسّميه : مهاجر أم قيس^(٢)

قال : فقال عبد الله - يعني ابن مسعود - من هاجر بيتي شيئاً فهو له^(٣)

وسائر الأعمال كالهجرة في هذا المعنى ، فصلاحتها وفسادها بحسب النية الباعثة عليها كالجهاد والحج وغيرهما .

(١) جامع العلوم والحكم ١٤/١ . وفي تفسير ابن كثير ٣٥١/٤ قال : عن عبد الله بن أبي أحمد قال : هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط في الهجرة ، فخرج أخاها عمارة والوليد حتى قدما على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكلماه فيها أن يردّها إليهما ، فنقض الله العهد بينه وبين المشركين في النساء خاصة ، فمنعهم أن يردوهن إلى المشركين ، وأنزل الله آية الامتحان قال : سئل ابن عباس كيف كان امتحان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - النساء ؟ قال : كان يمتحنهن بالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، وبالله ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلّا حباً لله ولرسوله .

وذكر أن الذي كان حلفهن عن أمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - له عمر بن الخطاب - رضي الله عنه .

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنوهن ﴾ كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وقال مجاهد : فامتنوهن ، فاسألوهن عما جاء بهن ، فإن كان جاء بهن غضب على أزواجهن ، أو سخطه ، أو غيره ، ولم يؤمن فارجعوهن إلى أزواجهن . وقال عكرمة : يقال لها ما جاء بك إلّا حب الله ورسوله ، وما جاء بك عشق رجل منا ، ولا فرار من زوجك ؟ . فذلك قوله فامتنوهن ، وقال قتادة : كان امتحانهن أن يستحلفن بالله ما أخرجكن التشوز ، وما أخرجكن إلّا حب الإسلام وأهله وحرص عليه ؟ فإذا قلن ذلك قبل ذلك منهن ،

وقوله تعالى : ﴿ فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى الكفار ﴾ فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقيناً . وانظر تفسير الطبري ٦٧/٢٨ . ومختصر المختصر ١٧٠/١ .

(٢) فتح الباري ١٠/١ قال ابن حجر : وقصة مهاجر أم قيس رواها سعيد بن منصور بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : من هاجر بيتي شيئاً فإنما له ذلك ، هاجر رجل ليتزوج امرأة يقال لها أم قيس فكان يقال له مهاجر أم قيس ، ورواه الطبراني من طريق أخرى عن الأعمش بلفظ : كان فينا رجل خطب امرأة يقال لها أم قيس ، فأبّت أن تتزوجه حتى يهاجر ، فهاجر فتزوجها ، فكنا نسّميه مهاجر أم قيس ، وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين لكن ليس فيه أن حديث الأعمال سيق بسبب ذلك ولم أر في شيء من الطرق ما يقتضي التصريح بذلك . وانظر مجمع الزوائد للهيتمي ١٠١/٢ . جامع العلوم والحكم ١٤/١ . عون العبود ٢٠٤/٦ . شرح صحيح مسلم للنووي ٥٥/٢

المبحث الثامن: النية والجهاد في سبيل الله تعالى

الجهاد في سبيل الله تعالى من أفضل القرب ، بل إنه يأتي كما في الصحيحين بعد الإيمان بالله تعالى ، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أي الأعمال أفضل ؟ قال : (إيمان بالله) قال : ثم ماذا ؟ قال : (الجهاد في سبيل الله) قال : ثم ماذا ؟ قال : ﴿ حج مبرور ﴾^(١)

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قيل للنبي - صلى الله عليه وسلم - ما يعدل الجهاد في سبيل الله عز وجل ؟ قال : (لا تستطيعوا)^(٢) قال : فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا كل ذلك يقول : (لا تستطيعونه) وقال في الثالثة : (مثل المجاهد في سبيل الله كمثّل القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى)^(٣)

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : (لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، تأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش ، فلما

(١) صحيح البخاري ١٨/١ . صحيح مسلم ٨٨/١ .

(٢) وفي رواية لا تستطيعونه ، والكل صحيح . انظر التعليق على الحديث في صحيح مسلم ١٤٩٨/٣ .

(٣) صحيح مسلم ١٤٩٨/٣ .

وجدوا طيب مآكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلغ أنا
أحياء في الجنة نرزق ؛ لئلا يزهّدوا في الجهاد ولا ينكلوا
عند الحرب ؟ فقال الله سبحانه : ﴿ أنا أبلغهم عنكم ﴾
قال : فأنزل الله ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله ﴾
إلى آخر الآية ^(١)

وقد بين النبي - صلى الله عليه وسلم - أن ترك
الجهاد سبب في الذل ، فعن ابن عمر - رضي الله عنه -
قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول :
(إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع
وتركتكم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى
ترجعوا إلى دينكم) ^(٢)

وعن يزيد بن أبي حبيب ، عن أسلم أبي عمران قال :
غزونا القسطنطينية ، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن
الوليد ، والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة ، فحمل
رجل على العدو ، فقال الناس : مه مه لا إله إلا الله ، يلقي
بيديه إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب : سبحان الله ، أنزلت
هذه الآية فينا معاشر الأنصار ، لما نصر الله نبيه ، وأظهر
دينه ، قلنا : هلم نقيم في أموالنا ونصلحها ، فأنزل الله -

(١) سنن أبي داود ١٥/٣ سكت عنه . مسند الإمام أحمد ٢٦٥/١ المستدرک للحاكم
٩٧/٢ الأحاديث المختارة ٣٤٩/١٠ . سنن البيهقي الكبرى ١٦٣/٩ .

(٢) سنن أبي داود ٢٧٤/٣ سكت عنه . سنن البيهقي الكبرى ٣١٦/٥ . فيض القدير
٣١٤/١ وضعفه . عون المعبود ٢٤٢/٩ .

عز وجل (وأنفقوا في سبيل الله) الآية ، والإلقاء باليد إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد ، فلم يزل أبو أيوب مجاهداً في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية ، فقبره هناك .

فأخبرنا أبو أيوب : أن الإلقاء باليد إلى التهلكة هو ترك الجهاد في سبيل الله ، وأن الآية نزلت في ذلك ، وروي مثله عن حذيفة والحسن وقتادة ومجاهد والضحاك .

قلت ^(١) : وروى الترمذي عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران هذا فقال :

كنا بمدينة الروم ، فأخرجوا إلينا صفا عظيماً من الروم ، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر ، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر ، وعلى الجماعة فضالة بن عبيد ، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم ، فصاح الناس وقالوا : سبحان الله يلقي بيديه إلى التهلكة ، فقام أبو أيوب الأنصاري فقال : يا أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل ، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار ، لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه ، فقال بعضنا لبعض سرّاً دون رسول الله - صلى الله عليه وسلم : إن أموالنا قد ضاعت ، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر

(١) القائل القرطبي .

ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها ،
فأنزل الله على نبيه - صلى الله عليه وسلم ، يرد علينا ما
قلنا (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة
(فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا
الغزو ، فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله ، حتى
دفن بأرض الروم

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب
اهـ. (١).

ولما كان الجهاد في سبيل الله تعالى بهذه المثابة فإنه
لا بد أن يكون خالصاً لله تعالى ، ولذلك كان النبي صلى
الله عليه وسلم يحذر أمته من أن يكون هذا الجهاد لغير
الله تعالى ، فقد سئل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن
اختلاف الناس في الجهاد ، وما يقصد به من الرياء
وإظهار الشجاعة والعصبية وغير ذلك ، أي ذلك في سبيل
الله ؟ فقال : (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في
سبيل الله) فخرج بهذا كل ما سألوه عنه من المقاصد
الدنيوية.

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري أن أعرابياً
أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ،
الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل

(١) سنن الترمذي ٢١٣/٥ . صحيح ابن حبان ٩/١١ . تفسير القرطبي ٢/٣٦١-٣٦٢

ليرى مكانه ، فمن قاتل في سبيل الله ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)

وفي رواية لمسلم : سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاقل حماية ، ويقاقل رياء فأى ذلك في سبيل الله ؟ فذكر الحديث.

وفي رواية له أيضاً (الرجل يقاتل غضباً ، ويقاقل حماية)^(١).

وخرج النسائي من حديث أبي أمامة قال : جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم : فقال : أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (لا شيء) ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً ، وابتغى به وجهه)^(٢)

وعن أبي هريرة ، أن رجلاً قال : يا رسول الله ، رجل يريد الجهاد ، وهو يريد عرضاً من عرض الدنيا ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا أجر له ، فأعاد عليه ثلاثاً ، والنبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: ﴿ لا أجر له ﴾^(٣)

(١) صحيح البخاري ٥٨/١ . ١٣٤/٣ . صحيح مسلم ١٥١٢/٣ . ١٥١٣/٣ . صحيح ابن حبان ٤٩٣/١٠ . سنن الترمذي ١٧٩/٤ . سنن أبي داود ١٤/٣ . سنن النسائي (المجتبى) ٣٣ / ٦ . سنن ابن ماجه ٩٣١/٢ . مسند الإمام أحمد ٤٠١/٤ .

(٢) سنن النسائي ١٦/٣ . سبل السلام ٤٤/٤ قال : رواه أبو داود والنسائي عن أبي أمامة بإسناد جيد اهـ .

(٣) صحيح ابن حبان ٤٩٤/١٠ . المستدرك للحاكم ٩٤/٢ . موارد الضمآن ٣٨٦/١ . سنن البيهقي الكبرى ١٦٩/٩ . سنن أبي داود ١٤/٣ .

المبحث التاسع : النية وتعلم العلم وتعليمه:

لاشك أن طلب العلم من الأمور التي حث عليها الإسلام ، سواء كان ذلك في القرآن الكريم أم في السنة النبوية المطهرة ، ولما كان العلم بهذه المكانة المرموقة ، وكان الناس يتفاضلون بالعلم ودرجاته ، ولهم به منزلة عند الناس ؛ لذلك حض الإسلام العلماء أن يكون علمهم لله تعالى، وحذرهم من أن يجعلوه سُلماً لنيل الدنيا وحطامها .

وأول العلوم وأعلىها وأهمها وأولاها كتاب الله تعالى (القرآن الكريم) الذي قال عنه الإمام القرطبي في مقدمة تفسيره : الذي أعجزت الفصحاء معارضته ، وأعيت الألباء مناقضته ، وأخرست البلغاء مشاكلته ، فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، جعل أمثاله عبراً لمن تدبرها ، وأوامره هدى لمن استبصرها ، وشرح فيه واجبات الأحكام ، وفرق فيه بين الحلال والحرام ، وكرر فيه المواعظ والقصص للإفهام ، وضرب فيه الأمثال ، وقص فيه غيب الأخبار ، فقال تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ ٣٨- الأنعام . خاطب به أوليائه ففهموا ، وبين لهم فيه مراده فعلموا ، فقرأ القرآن حملة سر الله المكنون ، وحفظة علمه المخزون ، وخلفاء أنبيائه وأمنائه ، وهم أهله وخاصته وخيرته وأصفيائه قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: (إن لله أهليين منا ، قالوا : يا رسول الله من هم ؟ قال:

(هم أهل القرآن أهل الله وخاصته)^(١)

فما أحق من عِلْمِ كتاب الله أن يزدجر بنواهيهِ ،
ويتذكر ما شرح له فيه ، ويخشى الله ويتقيه ، ويراقبه
ويستحييه ، فإنه قد حُمِّلَ أعباء الرسل ، وصار شهيداً في
القيامَةِ على من خالف من أهل الملل ، قال
الله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء
على الناس﴾ ١٤٣- البقرة .

ألا وإن الحجة على من علمه فأغفله ، أوكد منها على
من قصر عنه وجَهِله ، ومن أوتى علم القرآن فلم ينتفع ،
وزجرته نواهيهِ فلم يرتدع ، وارتكب من المآثم قبيحاً ، ومن
الجرائم فضوحاً ، كان القرآن حجة عليه ، وخصماً لديه ،
قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: (القرآن حجة لك
أو عليك)^(٢)

فالواجب على من خصه الله بحفظ كتابه ، أن يتلوه
حق تلاوته ، ويتدبر حقائق عبارته ، ويتفهم عجائبه ،
ويتبين غرائبهِ ، قال الله تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك
ليدبروا آياته﴾ ٢٩- ص. وقال الله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون
القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ ٨٢- النساء .

(١) المستدرک للحاکم ٧٤٣/١ . سنن البيهقي الكبرى ١٧/٥ . سنن ابن ماجه ٧٨/١ . مصباح
الزجاجة ٢٩/١ عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال قال رسول الله - صلى الله عليه
وسلم: (إن لله أهلين من الناس) قالوا : يارسول الله من هم ؟ قال: (هم أهل القرآن ، أهل
الله وخاصته) هذا إسناد صحيح رجاله موثقون

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢ . جامع العلوم والحكم ٣٤٣/١ .

جعلنا الله ممن يرعاه حق رعايته ، ويتدبره حق تدبره ،
ويقوم بقسطه ، ويوفي بشرطه ، ولا يلتمس الهدى في
غيره ، وهدانا لأعلامه الظاهرة ، وأحكامه القاطعة
الباهرة ، وجمع لنا به خير الدنيا والآخرة ، فإنه أهل
التقوى وأهل المغفرة^(١)

وعن كثير بن قيس قال : كنت جالساً عند أبي الدرداء
في مسجد دمشق ، فأتاه رجل فقال : يا أبا الدرداء أتيتك
من المدينة ، مدينة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
لحديث بلغني أنك تحدث به عن النبي - صلى الله عليه
وسلم - قال : فما جاء بك تجارة ؟ قال : لا ، قال : ولا بك
غيره ؟ قال : لا ، قال : فإني سمعت رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - يقول : (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً
سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها
رضاً لطالب العلم ، وإن طالب العلم يستغفر له من في
السماء والأرض ، حتى الحيتان في الماء ، وإن فضل العالم
على العابد ، كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء
ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما
ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر)^(٢)

(١) مقدمة تفسير القرطبي ١/١-٢ .

(٢) صحيح البخاري ١/٣٧ . صحيح ابن حبان ١/٢٩٠ . سنن الترمذي ٥/٤٨ . سنن
أبي داود ٣/٣١٧ . سنن ابن ماجه ١/٨١ .

وكان معاوية بن أبي سفيان يحدث عن رسول الله -
صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (الخير عادة والشر لجاجة
ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)^(١)

خرج مسلم من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -
قال : سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: (إن
أول الناس يقضى يوم القيامة عليه ، رجل استشهد ، فأتى
به فعرفه نعمه فعرفها ، فقال : ما عملت فيها ؟ قال :
قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت
لأن يقال جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه
حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ
القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، فقال : ما عملت
فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت القرآن فيك ،
قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم ، وقرأت
القرآن ليقال قاريء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على
وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه
من أصناف المال ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، فقال :
فما عملت فيها ؟ فقال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق
فيه إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال

(١) صحيح مسلم ٢ / ٧١٩ عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف قال: سمعت معاوية
ابن أبي سفيان وهو يخطب يقول إني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
يقول: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم ويعطي الله) صحيح
البخاري ٣٩٠/١

هو جواد ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى
ألقي في النار^(١)

وفي الحديث أن معاوية - رضي الله عنه - لما بلغه
هذا الحديث بكى حتى غشي عليه ، فلما أفاق
قال: صدق الله ورسوله ، قال الله - عز وجل: ﴿من كان
يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم
فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة
إلا النار﴾ ١٥ - هود

وقد ورد الوعيد على من تعلم العلم لغير وجه الله .

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى
الله عليه وسلم (من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله ، لا
يتعلمه إلا ليصيب عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة
يوم القيامة)^(٢) يعني ربحها .

ومن حديث كعب بن مالك عن النبي - صلى الله عليه
وسلم - قال: (من طلب العلم ليماري به السفهاء ، أو
يجاري به العلماء ، أو يصرف به وجوه الناس إليه ، أدخله
الله النار)

وبمعناه من حديث جابر عن النبي - صلى الله عليه
وسلم - ولفظ حديث جابر :

(١) صحيح مسلم ١٥١٣/٣ . المستدرک للحاکم ١٨٩/١ . سنن البيهقي الكبرى ١٦٨/٩ .
سنن النسائي (المجتبى) ٢٣/٦ .

(٢) صحيح ابن حبان ٢٧٩/١ . المستدرک للحاکم ١٦٠/١ . موارد الضمآن ٥١/١ . سنن
الترمذي ٣٢/٥ . سنن أبي داود ٣٧٣/٣ . سنن ابن ماجه ٩٢/١

(لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ، ولا لتماروا به السفهاء ، ولا تُخَيِّرُوا بالمجالس ، فمن فعل ذلك فالنار^(١) النار)

وقد ورد الوعيد على العمل لغير الله عموماً ، فعن أبي ابن كعب - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال (بشر هذه الأمة بالثناء : بالعز والرفعة والدين والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا ، لم يكن له في الآخرة من نصيب)^(٢)

(١) سنن الترمذي ٣٢/٥ . سنن الدارمي ١١٦/١ . مجمع الزوائد للهيتمي ١٨٤/١
سنن ابن ماجه ٩٣/١ . المعجم الكبير للطبراني ١٠٠/١٩ . مصباح الزجاجة ٣٧/١ عن
جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال (لا
تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ، ولا لتماروا به السفهاء ، ولا تخيروا به المجالس ،
فمن فعل ذلك فالنار النار) هذا إسناد رجاله ثقات على شرط مسلم ، رواه ابن حبان
في صحيحه من طريق ابن أبي مريم ، ورواه الحاكم في المستدرك من طريق ابن أبي
مريم أيضاً مرفوعاً ومرسلاً .

(٢) صحيح ابن حبان ١٣٢/٢ . المستدرك للحاكم ٣٤٦/٤ . الأحاديث المختارة
٣٥٨/٣ . موارد الضمآن ٦١٨/١ . فيض القدير ٢٠١/٣ . مجمع الزوائد ج: ١٠ ص:
٢٢٠ عن أبي بن كعب - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه
وسلم (بشر هذه الأمة بالسنة والتمكين في الأرض - وهو يشك في الثالثة - قال:
(فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب) رواه أحمد وابنه
من طرق ورجال أحمد رجال الصحيح .

المبحث العاشر: أقسام العمل بنية لغير الله تعالى

في جامع العلوم والحكم قال : واعلم أن العمل لغير الله أقسام : فتارة يكون رياءً محضاً ، بحيث لا يراد به سوى مرئيات المخلوقين لغرض دنيوي ، كحال المنافقين في صلاتهم ، قال الله - عز وجل: ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ ﴾ ١٤٢ - النساء

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ ٧ - الماعون .

وكذلك وصف الله تعالى الكفار بالرياء المحض في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ ٤٧ - الأنفال .

وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن في فرض الصلاة والصيام ، وقد يصدر في الصدقة الواجبة والحج وغيرهما من الأعمال الظاهرة ، والتي يتعدى نفعها ، فإن الإخلاص فيها عزيز ، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط ، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة ، وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء ، فإن شاركه من أصله ، فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه أيضاً وحبوطه .

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (يقول الله - تبارك وتعالى - أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه

غيري تركته وشركه) وخرجه ابن ماجه ولفظه (فأنا منه بريء وهو للذي أشرك)^(١)

وعن شداد بن أوس عن النبي - صلى الله عليه وسلم- قال (من صلى يرأى فقد أشرك ، ومن صام يرأى فقد أشرك ، ومن تصدق يرأى فقد أشرك ، فإن الله - عز وجل - يقول : أنا خير قسيم لمن أشرك بي شيئاً ، فإن جدة عمله قليلة وكثيره لشريكه الذي أشرك به أنا عنه غني)^(٢)

(١) صحيح مسلم ٢٢٨٤/٤ . صحيح ابن خزيمة ٦٧/٢ . سنن ابن ماجه ١٤٠٥/٢ . شرح صحيح مسلم للنووي ١١٥/١٨ . فيض القدير ٤٨٣/٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ١٠٩/٣-١١٠ . حدثنا عبد الحميد يعني ابن بهرام ، قال : قال شهر بن حوشب : قال عبد الرحمن بن غنم : لما دخلنا مسجد الجابية أنا وأبو الدرداء لقينا عبادة بن الصامت ، فأخذ يميني بشماله ، وشمال أبي الدرداء بيمينه ، فخرج يمشي بيننا ونحن نتجاجى ، والله أعلم بما نتجاجى به ، فقال عبادة بن الصامت : إن طال بكما عمر أحدكما أو كليكما لتوشكان أن تريا الرجل من ثيغ المسلمين - يعني من وسط قراء القرآن على لسان محمد - صلى الله عليه وسلم - فأعاده وأبداه ، وأجل حاله ، وحرم حرامه ، ونزله عند منزله - لا يجوز فيكم إلا كما يجوز رأس الحمار الميت ، قال : فبينما نحن كذلك إذ طلع شداد بن أوس - رضي الله عنه - وعوف بن مالك فجلسا إلينا ، فقال شداد : إن أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس لما سمعت رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - يقول : (من الشهوة الخفية والشرك) فقال عبادة بن الصامت وأبو الدرداء : اللهم غفراً ألم يكن رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - قد حدثنا (أن الشيطان قد يئس أن يعبد في جزيرة العرب ؟) أما الشهوات الخفية فقد عرفتموها : هي شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها ، فما هذا الشرك الذي تخوفنا يا شداد ؟ فقال شداد : أرايتكم لو رأيتم رجلاً يصلي لرجل ، أو يصوم لرجل ، أو يتصدق أترون أنه قد أشرك ؟ قالوا : نعم والله إن من صلى لرجل ، أو صام أو تصدق له لقد أشرك ، فقال شداد : فأني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : ﴿ من صلى يرأى فقد أشرك ، ومن صام يرأى فقد أشرك ، ومن تصدق يرأى فقد أشرك ﴾ قال عوف بن مالك عند ذلك : أفلا يعبد الله إلى ما أبتغي به وجهه من ذلك العمل كله ، فيقبل ما خلص له ويدع ما أشرك به ، فقال شداد عند ذلك : فأني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول ﴿ إن الله يقول : أنا خير قسيم لمن أشرك : بين وأجب . من أشرك : بين وأجب . شيئاً فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به ، أنا عنه غني ﴾ طريق أخرى لبعضه قال الإمام أحمد (٤١٢٣) حدثنا زيد بن الحباب حدثني عبد الواحد بن زياد أخبرنا عبادة بن نسي عن شداد ابن أوس - رضي الله عنه - أنه بكى ، فقليل له ما يبيكي ؟ قال : شيء سمعته من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأبكاني : سمعت رسول الله يقول : ﴿ أتخوف على أمتي الشرك والشهوة الخفية ﴾ قلت : يا رسول الله أتشرك أمتك من بعدك ؟ قال : ﴿ نعم أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً ، ولكن يراؤن بأعمالهم - والشهوة الخفية : أن يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه ﴾ إه . . مسند البزار ٤٠٧/٨ : وهذا الحديث بهذا اللفظ لا نعلم يرويه إلا شداد بن أوس ولا نعلم له طريقاً إلا هذا الطريق الذي ذكرناه وعبد الحميد بن بهرام قد روى عنه جماعة من أهل العلم إه . الكامل في الضعفاء ٢٩/٤ ضعف شهر بن حوشب الراوي عن ابن غنم إه لكن في مجمع الزوائد ٢٢١/١٠ قال : وفيه شهر بن حوشب وثقه أحمد وغيره ، وبقيته رجاله ثقات . المعجم الكبير للطبراني ٢٨١/٧ . جامع العلوم والحكم ١٦/١ .

وعن أبي سعيد بن أبي فضالة - وكان من الصحابة -
قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: (إذا جمع
الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ، نادى مناد : من
كان أشرك في عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير
الله-عز وجل-فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك)^(١)

وعن الضحاک بن قيس عن النبي - صلى الله عليه
وسلم - قال: (إن الله - عز وجل - يقول : أنا خير
شريك ، فمن أشرك معي شريكاً فهو لشريكه ، يا أيها
الناس أخلصوا أعمالكم لله - عز وجل - فإن الله لا يقبل
من الأعمال إلا ما أخلص له ، ولا تقولوا هذا لله والرحم ،
فإنها للرحم وليس لله منها شيء ، ولا تقولوا هذا لله
ولجوهكم ، فإنها لجوهكم وليس لله منها شيء)^(٢)

وعن أبي أمامة الباهلي - رضي الله عنه - أن رجلاً
أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله ،
أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ؟ فقال رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - (لا شيء له) فأعادها عليه
ثلاث مرات ، يقول له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

(١) سنن الترمذي ٣١٤/٥ وحسنه . صحيح ابن حبان ١٣١/٥ . مسند الإمام أحمد
٤٦٦/٣ . المعجم الكبير ٢٢/٣٠٥ . مجمع الزوائد ١٠/٢٢١ . موارد الضمآن ١/٤١٨ .
سنن ابن ماجه ٢/١٤٠٦

(٢) مجمع الزوائد ١٠/٢٢١ : رواه البزار عن شيخه إبراهيم بن محشر ، وثقه ابن
حبان وغيره ، وفيه ضعف ، وبقية رجاله رجال الصحيح . الأحاديث المختارة ٨/٩٠ .
سنن الدارقطني ١/٥١ . سنن البيهقي الكبرى ٧/٢٩٠ . مصنف ابن أبي شيبة
٧/١٢٠ .

(لا شيء له) ثم قال : (إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً ، وابتغى به وجهه)^(١)

وخرج الحاكم من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رجل : يا رسول الله إني أقف الموقف أريد به وجه الله ، وأريد أن يرى موطني ، فلم يرد عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شيئاً حتى نزلت ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ ١١٠ الكهف^(٢) .

ومن يروى عنه هذا المعنى - أن العمل إذا خالطه شيء من الرياء كان باطلاً - طائفة من السلف : منهم عبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء ، والحسن ، وسعيد بن المسيب ، وغيرهم .

قال ابن رجب : ولا نعرف عن السلف في هذا خلافاً ، وإن كان فيه خلاف عن بعض المتأخرين .

فإن خالط نية الجهاد مثل نية غير الرياء : مثل أخذه أجره للخدمة ، أو أخذ شيء من الغنيمة ، أو التجارة ، نقص بذلك أجر جهاده ، ولم يبطل بالكلية^(٣) .

(١) فيض القدير ٢/٢٧٥ عن أبي أمامة قال قلت : يا رسول الله ، أرايت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له ؟ فقال : (لا شيء له) فأعادها ثلاثاً يقول : (لا شيء له) ثم ذكره قال العلاء : والحديث صحيح صححه الحاكم ، وقال المنذري إسناده جيد ، وقال الحافظ العراقي حسن ، وقال ابن حجر جيد اهـ . جامع العلوم والحكم ١/١٥٠ سنن البيهقي الكبرى ٢/١٨٠ . سنن النسائي (المجتبى) ٦/٢٥٠ فتح الباري لابن حجر ٦/٢٨٠ . فيض القدير ٥/٦٧١ . تحفة الأحوذى للمباركفوري ٥/٣٢١ .

(٢) المستدرک للحاکم ٢/١٢٢ هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه اهـ . ٤/٢٦٦ نقل عن طاووس حديثاً مرسلًا . شعب الإيمان ٥/٤٣١ .

(٣) جامع العلوم والحكم ١/٣٦-٣٧ .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: (ما من غازية أو سرية تغزو فتغنم وتسلم إلا كانوا قد تعجلوا ثلثي أجورهم ، وما من غازية أو سرية تخفق وتصاب إلا تم أجورهم).^(١)

وقد ذكرنا فيما مضى أحاديث تدل على أن من أراد بجهاده عرضاً من الدنيا أنه لا أجر له ، وهي محمولة على أنه لم يكن له غرض في الجهاد إلا الدنيا .

وقال الإمام أحمد : التاجر والمستأجر والمكاري أجورهم على قدر ما يخلص من نيتهم في غزواتهم ، ولا يكون مثل من جاهد بنفسه وماله لا يخلط به غيره .

وقال أيضاً - في من يأخذ جعلاً على الجهاد - إذا لم يخرج إلا لأجل الدراهم ، فلا بأس أن يأخذ ، كأنه خرج لدينه ، فإن أعطي شيئاً أخذه ،

وكذا روي عن عبد الله بن عمرو قال : إذا جمع أحدكم على الغزو فعوضه الله رزقاً فلا بأس بذلك ، وأما إن أحدكم إن أعطي درهماً غزا ، وإن منع درهماً مكث ، فلا خير في ذلك .

وكذا قال الأوزاعي : إذا كانت نية الغازي على الغزو فلا أرى بأساً .

(١) صحيح مسلم ١٥١٤/٣ و ١٥١٥ . المستدرک للحاکم ٨٧/٢ . سنن أبي داود ٨/٣
سنن البيهقي الكبرى ١٦٩/٩ . سنن ابن ماجه ٩٣١/٢ . مسند الإمام أحمد ١٦٩/٢
الترغيب والترهيب للمنزري ١٩٦/٢ . فتح الباري لابن حجر ٨/٦ .

وهكذا يقال في من أخذ شيئاً في الحج ليحج به ، إما
عن نفسه، أو عن غيره.

وقد روي عن مجاهد أنه قال - في حج الحمال ،
وحج الأجير ، وحج التاجر - هو تام لا ينقص من أجورهم
شيء.

وهذا محمول على أن قصدهم الأصلي كان هو الحج
دون التكسب ،

وأما إن كان أصل العمل لله ، ثم طرأت عليه نية
الرياء، فلا يضره ، فإن كان خاطراً أو دفعه ، فلا يضره
بغير خلاف ، فإن استرسل معه ، فهل يحبط عمله أو لا
يضره ذلك ، ويجازى على أصل نيته ؟ في ذلك اختلاف
بين العلماء من السلف قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير
الطبري ، وأرجو أن عمله لا يبطل بذلك ، وأنه يجازى بنيته
الأولى ، وهو مروي عن الحسن البصري وغيره^(١)

ويستدل لهذا القول بما خرجه أبو داود في مراسيله
عن عطاء الخراساني ، أن رجلاً قال : يا رسول الله إن بني
سلمة كلهم يقاتل : فمنهم من يقاتل للدنيا ، ومنهم من
يقاتل نجدة ، ومنهم من يقاتل ابتغاء وجه الله ، فأيهم
الشهيد ؟ قال : (كلهم إذا كان أصل أمره أن تكون كلمة الله
هي العليا).

(١) جامع العلوم والحكم ١/٣٧-٣٨

وذكر ابن جرير أن هذا الاختلاف إنما هو في عمل يرتبط آخره بأوله ، كالصلاة والصيام والحج ، فأما ما لا ارتباط فيه كالقراءة والذكر ، وإنفاق المال ، ونشر العلم ، فإنه ينقطع بنية الرياء الطارئة عليه ، ويحتاج إلى تجديد نية .

وكذلك روي عن سليمان بن داود الهاشمي أنه قال : ربما أحدث بحديث ولي فيه نية ، فإذا أتيت على بعضه تغيرت نيتي ، فإذا الحديث الواحد يحتاج إلى نيات .

ولا يرد على هذا الجهاد ، كما في مرسل عطاء الخراساني ، فإن الجهاد يلزم بحضور الصف ، ولا يجوز تركه حينئذ ، فيصير كالحج ، فأما إذا عمل العمل لله خالصاً ، ثم ألقى الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين بذلك ، بفضل ورحمة ، واستبشر بذلك ، لم يضره ذلك .

وفي هذا المعنى جاء حديث أبي ذر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه سئل عن الرجل يعمل العمل لله من الخير ، يحمده الناس عليه ، فقال : (تلك عاجل بشرى المؤمن)^(١)

وبهذا المعنى فسره الإمام أحمد ، وإسحاق بن راهويه ، وابن جرير الطبري ، وغيرهم^(٢)

وكذلك الحديث الذي خرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رجلاً قال : يا

(١) صحيح مسلم ٢٠٣٤/٤ صحيح ابن حبان ٨٧/٢ . مسند الإمام أحمد ١٥٦/٥ .

(٢) جامع العلوم والحكم ٤٠/١ .

رسول الله ، الرجل يعمل فيسره ، فإذا اطلع عليه أعجبه ؟ فقال: (له أجران : أجر السر ، وأجر العلانية).^(١)

المبحث الحادي عشر: سبب عقوبة أصحاب الجنة ؟

يتساءل المرء عن أصحاب الجنة لم عاقبهم الله تعالى وهم لم يعملوا منكراً إنما نوا ذلك فقط . وللجواب عن هذا نقول :

لم يقع من أصحاب الجنة النية فقط ، وإنما وقع منهم العزم على منع الفقراء حقهم ثم بدؤوا التنفيذ فعاقبهم الله تعالى على ذلك ، ومن هنا لا بد من بيان معنى النية والعزم والهم وما شاكلهما .

قال القرافي : في كتابه الأمنية في إدراك النية :

إن هذه الإرادة متنوعة إلى العزم ، والهم ، والنية ، والشهوة ، والقصد ، والاختيار ، والقضاء ، والقدر ، والعناية ، والمشئمة ، فهي عشرة ألفاظ اهـ.^(٢)

ونبين الفرق بين النية وما يرادفها من الألفاظ ، ثم نفصل القول في العزم ، في خمسة مطالب فنقول:

(١) سنن الترمذي ٥٩٤/٤ حسنه وقال : قال أبو عيسى : وقد فسر بعض أهل العلم هذا الحديث فقال : إذا أطلع عليه فأعجبه فإنما معناه أن يعجبه ثناء الناس عليه بالخير : لقول النبي - صلى الله عليه وسلم - (أنتم شهداء الله في الأرض) فيعجبه ثناء الناس عليه لهذا لما يرجو بثناء الناس عليه فأما إذا أعجبه ليعلم الناس منه الخير ليكرم على ذلك ويعظم عليه فهذا رياء ، وقال بعض أهل العلم : إذا أطلع عليه فأعجبه رجاء أن يعمل بعمله فيكون له مثل أجورهم فهذا له مذهب أيضا اهـ. صحيح ابن حبان ٩٩/٢ . تفسير ابن كثير ٥٥٦/٤ . موارد الضمان ١٧١/١ . جامع العلوم والحكم ٤٠/١ .

المطلب الأول : الفرق بين العزم والنية :

إن العزم ، هو إرادة يقطع بها المرید رويته في الإقدام على الفعل أو الإحجام عنه ، ويختص بإرادة المرید لفعل نفسه ، لأنه لا يجوز أن يعزم على فعل الغير^(١)

وأما النية فهي إرادة متقدمة للفعل بأوقات ، من قولك انتوى إذا بعد ، والنوى البعد ، والنية البعد كذلك ، فسميت بها الإرادة التي بعد ما بينها وبين مرادها ، ولا يفيد قطع الروية في الإقدام على الفعل ، والعزم يكون متقدما للمعزوم عليه بأوقات وبوقت^(٢)

وفي شرح سنن ابن ماجه ٢٨٥/١ ما حاصله : ما يقع في النفس من قصد المعصية على خمس مراتب :

الأولى : الهاجس : وهو ما يلقي فيها ، ثم جريانه فيها ، وهو الخاطر ، ثم حديث النفس وهو ما يقع فيها من التردد هل يفعل أو لا ، ثم الهم : وهو ترجيح قصد الفعل ، ثم العزم : وهو قوة ذلك القصد والجزم به .

فالهاجس لا يواخذ به إجماعا لأنه ليس من فعله^(٣)

(١) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص ١٠١ .

(٢) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص ١٠١ .

(٣) شرح سنن ابن ماجه للسيوطي ، وعبد الغني النابلسي ، وفخر الحسن الدهلوي ص ٢٨٥ .

المطلب الثاني : الفرق بين العزم والهم :

إن العزم : هو ما تقدم ، والهم : هو الفكر في إزالة المكروه ، واجتلاب المحبوب^(١)

(قلت) فعلى هذا فالهم يكون في أول الخاطر ، وما يأتي يكون الهم فيه آخر الأمر.

ومن الأول قول أبي حاتم عند حديث ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال : قال (إن الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة ، فلم يعملها ، كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة) متفق عليه^(٢) .

قال أبو حاتم رضي الله عنه : أراد به إذا عزم ، فسمى العزم هنا همًّا ؛ لأن العزم نهاية الهم ، والعرب في لغتها تطلق اسم البداية على النهاية ، واسم النهاية على البداية^(٣)

وقد يكون الهم آخر العزيمة عند واقعة الفعل ، قال

الشاعر:

(١) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص ١٠٤ .

(٢) صحيح البخاري انظر فتح الباري ١١ / ٢٢٣ رقم (٦٤٩١) واللفظ له ، ومسلم ١١٨ / ١ رقم (٢٠٧-١٣١) و١٤٦ / ١ رقم (١٦-٢٥٩) من حديث الإسراء الطويل ، ومسنند الإمام أحمد ٢٧٩ / ١ ، وصحيح ابن حبان ١٠٦ / ٢ . وانظر جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ٢ / ١٢٥ .

(٣) صحيح ابن حبان ١٠٦ / ٢

هممت ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حلاله
ويقال : هم الشحم إذا أذيب ، وذلك أن ذوبان الشحم
آخر أحواله ،

وقيل : الهم تعلق الخاطر بشيء له قدرة في الشدة ،
والمهمات الشدائد ، وأصل الكلمة الاستقصاء ، ومنه هم
الشحم إذا أذابه ، وهم المرض إذا هبط^(١)

المطلب الثالث : الفرق بين العزم والإزماع :

إن العزم يكون في كل وقت يختص به الإنسان ،
والإزماع يختص بالسفر ، يقال أزمعت السفر ، قال الشاعر
أزمعت من آل ليلي ابتكارا

ولا يقال : أزمعت الأكل والشرب كما تقول : عزمت على
ذلك ، والإزماع يتعدى بعلى ، فالفرق بينهما ظاهر^(٢)
وقال امرئ القيس :

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل إن كنت قد أزمعت صرمني فاجملي^(٣)
وقال أحيحة بن الجلاح :

وما تدري وإن أزمعت أمراً بأي الأرض يدركك المقيـل^(٤)

(١) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص ١٠٣-١٠٤

(٢) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص ١٠٢

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر ٥٣/٦٢

(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر ٩٤/٣٤

المطلب الرابع : الفرق بين العزم والحزم :

قال النقاش : العزم والحزم واحد ، والحاء مبدلة من العين ، قال ابن عطية : وهذا خطأ ، فالحزم جودة النظر في الأمر ، وتنقيحه ، والحذر من الخطأ فيه ، والعزم : قصد الإمضاء ، والله تعالى يقول : (وشاورهم في الأمر فإذا عزمت) فالمشاورة وما كان في معناها ، هو الحزم ، والعرب تقول : قد أحزم لو أعزم^(١)

المطلب الخامس : تعريف العزم :

وإليك ما وعدنا من تعريف العزم لأننا نقول : بأن أصحاب الجنة لم يكن منهم مجرد الهم والنية ، وإنما كان منهم العزم المؤكد على الفعل والبدء في التنفيذ لذا نقول : عرف العزم بتعريفات مختلفة : منها اللغوية ، ومنها ما هو في اصطلاح المفسرين ، ومنها ما هو في اصطلاح المحدثين ، وإليك التفصيل :

١- تعريف العزم في اللغة :

قال ابن فارس في المقاييس : قال الخليل : العزم : ما عقد عليه القلب من أمر أنت فاعله ، أي متيقنه .

ويقال : ما لفلان عزيمة ، أي ما يعزم عليه ، كأنه لا يمكنه أن يصرم الأمر ، بل يختلط فيه ويتردد اهـ .^(٢)

١ (تفسير القرطبي ٢/٢٥٢ . انظر مجمع الأمثال ٢/١٠٤ : وفيه لو أحزم فقد اعزم ، ومعناه : إن عزمت الرأي فأمضيته فأنا حازم اهـ .

٢ (المقاييس في اللغة لابن فارس ص ٧٧٠ .

وفي المصباح : عزم على الشيء وعزم عزمًا من باب ضرب : عقد ضميره على فعله وعزم عزيمة وعزيمة : اجتهد وجد في أمره^(١)

وقال الجرجاني في التعريفات : العزيمة : عبارة عن الإرادة المؤكدة ، قال الله تعالى: (ولم نجد له عزمًا)^(٢) أي لم يكن له قصد مؤكد في الفعل بما أمر به اهـ .^(٣)

وفي المعجم الوسيط : عزم فلان يعزم عزمًا ، وعزيمة ، وعزيمة ، وعزيمة ، ومعزمًا ، : جد وصبر ، يقال: ما لي عندك عزم .

وعزم الأمر : جد ولزم ، وفي التنزيل العزيز : ﴿فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم﴾ ٢١ - محمد .

وعزم الله لي خلق لي قوة وصبراً . وعزم على فلان: أمره وشدد عليه ، وعزم : أقسم ، وعزم الأمر وعليه : أراد فعله وعقد عليه نيته^(٤)

ومما تقدم يتبين أن المعاني التي تدل عليها لفظة (عزم) هي القصد ، والعقد ، والصبر ، والحزم ، والتحقيق ، والج ، والقطع ، والقسم ، ولزوم القصد ، وتوكيد الرأي ، وإرادة معنى الشيء ، وعقد النية عليه .

(١) المصباح المنير للفيومي ٥٧/٢ (عزم) وانظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية ٤٩٩/٢ .
(٢) ١١٥ طه .

(٣) التعريفات للجرجاني ص ١٥٠ .

(٤) المعجم الوسيط ٥٩٩/٢ .

وكل هذه المعاني تدل على المضي في الشيء ، وعدم التردد فيه ، وقوة التصميم والإرادة .

ونهاية القول : أن العزم أقوى معاني التوجه والقصد لإرادة الشيء بل النية والإرادة والقصد تسبقه ، وهي وإن كان لها بعض الخصائص والمميزات إلا أن العزم نهايتها وغايتها^(١)

(قلت) فعلى هذا فالعزم هو الإصرار على الفعل ، وسيأتي عند المفسرين مزيد بيان عن الإصرار ، إن شاء الله تعالى .

٢- تعريف العزم في اصطلاح المفسرين :

ولا يختلف الحال عند المفسرين عما هو عند اللغويين ولكن أحببت أن أنقل من كتب التفسير ما يبين معاني العزم، حيث إن المتتبع لكتبهم يجد عندهم من الدقة في اختيار المعاني الشيء الكثير ، وإليك البيان:

قال القرطبي: العزيمة : تتميم العقد على الشيء ، يقال: عزم عليه يعزم عَزْماً - بالضم - وعزيمة وعزماًناً ، واعتزم اعتزاماً ، وعزمت عليك لتفعلن : أي أقسمت عليك والعزيمة والعزم : ما عقدت عليه نفسك من أمر أنت فاعله^(٢)

(١) النية وأثرها في الأحكام الشرعية د/ صالح بن غانم السدلان ١١٠/١ .

(٢) تفسير القرطبي ١١٠/٣ .

قاله السيوطي في تفسير الجلالين^(١) عند قوله تعالى ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ ٣٥ - الأحقاف.

وعرف العزم بأنه : الثبات والصبر على الشدائد .

وفي حديث خزيم بن فاتك (من هم بحسنة فعلم الله منه أنه قد أشعر قلبه وحرص عليها كتبت له حسنة)^(٢)

وهذا يدل على أن المراد بالهم هنا هو العزم المصمم الذي يوجد معه الحرص على العمل ، لا مجرد الخطرة التي تخطر ، ثم تتفسخ من غير عزم ولا تصميم اهـ .^(٣)

(قلت) فعلى هذا ، فالعزم المراد هنا هو التصميم على العمل ، أما مجرد الهم الذي هو أول الخاطر فلا قيمة له ، فالعزم على هذا هو الإصرار على الفعل .

قال القرطبي في تفسيره : والعزم هو الأمر المروي المنقح ، وليس ركوب الرأي دون روية عزمًا ، إلا على مقطع المشيحين من فتاك العرب ، كما قال :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه

ونكب عن ذكر العواقب جانباً

(١) تفسير الجلالين ص ٦٧٢ .

(٢) تقدم مثل هذا الحديث وبمعناه كثير .

(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ٣ / ١٣٥ .

ولم يستشر في رأيه غير نفسه
ولم يرض إلا قائم السيف صاحباً^(١)

الإصرار والعزم:

بعد أن عرفنا معاني العزم نقول : هناك علاقة قوية
بين الإصرار والعزم نبينها فيما يلي :
قال القرطبي : عند قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَصْرُوا﴾ أي
ولم يثبتوا ويعزموا على ما فعلوا .
وقال مجاهد : أي ولم يمضوا ٠٠٠
وقال القرطبي: الإصرار: هو العزم بالقلب على الأمر،
وترك الإقلاع عنه، ومنه صَرَّ الدنانير: أي الربط عليها .
قال الحطيئة يصف الخيل:
عوابس بالشعث الكمة إذا ابتغوا

علالتها بالمحصدات أصرت^(٢)

(١) ديوان الحماسة ١٦/١ ذكر القصيدة و منها :

١ إذا هم لم تُردَّ عزيمة همه ولم يأت ما يأتي من الأمر هائباً

٢ فبا لِرزام رشحوا بي مقدماً إلى الموت خواصاً إليه الكتائب

٣ إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانباً

٤ ولم يستشر في رأيه غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحباً

والمعنى أنه إذا عزم على أمر مضى عليه وإذا أتى أمراً غير خائف منه وذلك
لشجاعته اهـ .

وهذه الأبيات قالها سعد بن ناشب المازني وهو شاعر إسلامي من الدولة المروانية وانظر
مجمع الأمثال ١٠٤/٢ والفوائد ٧٨/١. الإيضاح في علوم البلاغة ٢٠٥/١ تفسير القرطبي
٢٥٢/٤

(٢) ذكر هذا البيت الألويسي في تفسيره روح المعاني ٦١/٤ ونسبه للحطيئة أيضاً.

أي ثبتت على عدوها .

وقال قتادة : الإصرار الثبوت على المعاصي ، قال
الشاعر :

يصر بالليل ما تخفى شواكله

يا ويح كل مصر القلب ختار

قال سهل بن عبدالله : الجاهل ميت ، والناسي نائم ،
والعاصي سكران ، والمصر هالك ٠٠٠

وقال سهل : الإصرار : هو أن ينوي ألا يتوب ، فإذا
نوى التوبة النصوح ، خرج عن الإصرار ،

قال القرطبي: وقول سهل أحسن ، وروي عن
النبي ﷺ أنه قال: (لا توبة مع إصرار)^(١)

٣- العزم في اصطلاح المحدثين

اهتم المحدثون كما اهتم أهل اللغة وأهل التفسير في
بيان معنى العزم

ففي صحيح البخاري : باب قول الله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ
شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ ٣٨ - الشورى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ وأن
المشاورة قبل العزم والتبين لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ
فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ١٥٩ - آل عمران .

(١) تفسير القرطبي ٤/ ٢١١

فإذا عزم الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يكن لبشر التقدم على الله ورسوله ، وشاور النبي - صلى الله عليه وسلم - أصحابه يوم أحد في المَقام والخروج ، فرأوا له الخروج ، فلما لبس لأُمته وعزم ، قالوا : أقم ، فلم يمل إليهم بعد العزم ، وقال : (لا ينبغي لنبي يلبس لأُمته فيضعها حتى يحكم الله)^(١)

وشاور - صلى الله عليه وسلم - علياً وأسامة رضي الله عنهما فيما رمى به أهل الإفك عائشة فسمع منهما حتى نزل القرآن ، فجلد الرامين ، ولم يلتفت إلى تنازعهم ، ولكن حكم بما أمره الله .

وكانت الأئمة بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ؛ ليأخذوا بأسهلها ، فإذا وضع الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره ؛ اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم .

ورأى أبو بكر قتال من منع الزكاة فقال عمر : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوا لا إله إلا الله ، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله) فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين ما جمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

(١) الكلام لا يزال للبخاري .

ثم تابعه بعدُ عمر ، فلم يلتفت أبو بكر إلى مشورةٍ إذ كان عنده حكم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة ، وأرادوا تبديل الدين وأحكامه ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم (من بدل دينه فاقتلوه) وكان القراء أصحاب مشورة عمر كهولا أو شبانا وكان وقافا عند كتاب الله عز وجل^(١)

(قلت) يرى البخاري - رحمه الله تعالى - بما استدل به من الآيات والأحاديث أن العزم آخرُ الأمر ، وأن المشاورة والرأي كل ذلك قبل العزم ، وأن الإنسان إذا عزم على أمر مشروع ينبغي أن لا ينتهي عنه ، ومن هنا نرى أنه يؤاخذ على العزم والتصميم في الحرام، إذا لم يرجع عنه . والله أعلم .

(١) صحيح البخاري (٩٦) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (٢٨) باب قول الله تعالى (وأمرهم شورى بينهم) . ٢٨٦٣ / ٦ . ذكر كل ذلك .

المبحث الثاني عشر: هل عوقب أصحاب الجنة على العزم فقط؟

عرفنا العزم ، وأنه التصميم والإصرار على العمل ،
ونريد أن نعرف هل كان أصحاب الجنة مجرد مصرين على
حرمان المساكين أم أنهم مع ذلك بدءوا بتنفيذ ما عزموا
عليه ؟

قال القرطبي : قلت : في هذه الآية: ﴿فطاف عليها
طائف من ربك وهم نائمون﴾ دليل على أن العزم مما
يؤاخذ به الإنسان ؛ لأنهم عزموا على أن يفعلوا ، فعوقبوا
قبل فعلهم^(١)

ويقول الطبري : فإن الذي يهم بذلك من المؤمنين ، إذا
هو لم يصحح همه بما يهم به ، ويحقق ما أخفته نفسه من
ذلك بالتقدم عليه ، لم يكن مأخوذاً به كما روي عن رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: (من هم بحسنة
فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم
تكتب عليه)^(٢) فهذا الذي وصفنا هو الذي يحاسب الله به
مؤمني عباده ثم لا يعاقبهم عليه^(٣)

(قلت) فقد بين الطبري أن من فكر في عمل السيئة،
ولم يعزم على القيام بما فكر به أنه غير مؤاخذ به اهـ.

(١) تفسير القرطبي ١٨ / ٢٤١ .

(٢) صحيح مسلم ١١٨ / ١ . صحيح ابن حبان ١٠٧ / ٢ . مسند أحمد ٢٧٩ / ١ . سنن
الدارمي ٤١٣ / ٢ . بالفاظ مختلفة .

(٣) تفسير الطبري ١٥١ / ٣ . والحديث بعد هذا في صحيح مسلم .

وفي صحيح مسلم ما يبين أن الهم - وحده - بالسيئة مغفور لصاحبه ما لم يعمل به ، وقد روى عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة في ذلك ، وإليك بعضاً منها :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : قال الله عز وجل : (إذا هم عبدي بسيئة ، فلا تكتبوها عليه ، فإن عملها فاكتبوها سيئة ، وإذا هم بحسنة فلم يعملها ، فاكتبوها حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشرًا ^(١)) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : قال الله - عز وجل : (إذا هم عبدي بحسنة ولم يعملها ، كتبتها له حسنة ، فإن عملها كتبتها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف ، وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه ، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة) ^(٢)

حدثنا أبو هريرة عن محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فذكر أحاديث منها : قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : قال الله - عز وجل - (إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة ، فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعمل ، فإذا عملها ، فأنا أكتبها بعشر أمثالها ، وإذا تحدث بأن يعمل سيئة ، فأنا أغضرها له ما لم يعملها ، فإذا عملها ، فأنا أكتبها له بمثلها)

(١) صحيح مسلم ١١٧/١ رقم (٢٠٣-١٢٨) وانظر لهذه الأحاديث وغيرها إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري رقم (٧٠٥١)

(٢) صحيح مسلم ١١٧/١ رقم (٢٠٤-١٢٨)

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: (قالت الملائكة : رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة - وهو أبصر به - فقال : (ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة ، إنما تركها من جراي)

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم (إذا أحسن أحدكم إسلامه ؛ فكل حسنة يعملها ؛ تكتب بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وكل سيئة يعملها تكتب بمثلها حتى يلقى الله)^(١)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: (من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشرًا إلى سبعمائة ضعف، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب، وإن عملها كتبت)^(٢)

وعن ابن عباس عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فيما يروي عن ربه -تبارك وتعالى - قال (إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله - عز وجل - عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله

(١) صحيح مسلم ١١٨/١ رقم (٢٠٥ - ١٢٩)

(٢) صحيح مسلم ١١٨/١ رقم (٢٠٦ - ١٣٠)

عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة^(١)

(قلت) فمن هذه الأحاديث الصحيحة عرفنا أن الله تعالى لا يؤاخذ على مجرد الهم . اهـ .

قال القرطبي : في قوله تعالى: (ولم يصروا) حجة واضحة ودلالة قاطعة لما قاله سيف السنة ، ولسان الأمة القاضي أبو بكر بن الطيب : أن الإنسان يؤاخذ بما وطن عليه بضميره ، وعزم عليه بقلبه من المعصية^(٢)

(قلت) وفي هذا بيان أن مجرد الهم لا يؤاخذ عليه، إنما يؤاخذ على ما وطن عليه بضميره أي أقام على ما نواه وعزم عليه بقلبه . والله أعلم .

قال القرطبي : وقال جلّ جلاله: ﴿فأصبحت كالصريم﴾ فعوقبوا قبل فعلهم بعزمهم اهـ^(٣) .

(قلت) أي بسبب عزمهم على ما نووه اهـ .

وقال^(٤) وفي البخاري: (إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار ، قالوا : يا رسول الله هذا

(١) صحيح مسلم ١١٨/١ رقم (٢٠٧-٢٠٨-١٢١)

(٢) تفسير القرطبي ٢١٥/٤ ، ولم اعرف من هو أبو بكر بن الطيب (هو الباقلاني).

(٣) نفسه . وانظر ٢٤١/١٨ .

(٤) تفسير القرطبي ٢١٥/٤ (قلت) قاس هنا هذه المسألة على قوله تعالى: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ والمعلوم أن هذا في الحرم المكي ولا يقاس عليه غيره اهـ . والله أعلم .

القاتل، فما بال المقتول ؟ قال: (إنه كان حريصاً على قتل صاحبه) متفق عليه ^(١)

فعلق الوعيد على الحرص ، وهو العزم ، وألغى إظهار السلاح اهـ

وأنص ^(٢) من هذا ما أخرجه الترمذي ^(٣) من حديث أبي كبشة الأنماري ^(٤) وصححه ^(٥) مرفوعاً : (إنما الدنيا لأربعة نفر : رجل أعطاه الله مالا وعلماً ، فهو يتقي فيه ربه ، ويصل فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأفضل المنازل ، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالا ، فهو صادق النية ، يقول : لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان ، فهو نيته فأجرهما سواء ، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علماً فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه ، ولا يصل به رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقاً ، فهذا أخبث المنازل ، ورجل لم

(١) صحيح البخاري ، فتح الباري ١١/٣٢٧ . وصحيح مسلم ٤/٢٢١٤

(٢) أي هو أكثر تنصيهاً على الموضوع المبحوث .

(٣) الترمذي ٢١٠ - ٢٧٩هـ

محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي ، أبو عيسى ، محدث حافظ مؤرخ فقيه ، تلميذ البخاري ومشاركه في شيوخه ، وسمع منه البخاري ، ثقة حافظ . تقريب التهذيب لابن حجر ١٩٨/٢ ترجمة ٦٠٣ . شذرات الذهب لابن العماد ١٧٥-١٧٤/٢ .

(٤) أبو كبشة الأنماري : هو سعيد بن عمرو ، أو عمرو بن سعيد ، وقيل عمر ، أو عامر بن سعد صحابي ، نزل الشام له حديث عن أبي بكر .

تقريب التهذيب لابن حجر ٢/٤٦٥ ترجمة (٥) وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال ص٤٥٨ .

(٥) قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

يؤتاه الله مالاً ولا علماً ، فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان ، فهو نيته فوزهما سواء^(١)

قال القرطبي : وهذا الذي صار إليه القاضي هو الذي عليه عامة السلف وأهل العلم من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين ، ولا يلتفت إلى خلاف من زعم أن ما يهم الإنسان به وإن وطن عليه لا يؤاخذ به ، ولا حجة له في قوله ﷺ : (من هم بسيئة فلم يعملها ، لم تكتب عليه ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة) لأن معنى فلم يعملها ، فلم يعزم على عملها بدليل ما ذكرنا ، ومعنى فإن عملها أي أظهرها ، أو عزم عليها بدليل ما وصفنا وبالله توفيقنا^(٢) اهـ .

وقد قدمنا ما في البخاري وما ذا قال عند قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شَوْرَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ وأنه قال: باب قول الله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شَوْرَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ ﴿وشاورهم في الأمر﴾ وأن المشاورة قبل العزم والتبين ؛ لقوله: ﴿فإذا عزم فتوكل على الله﴾ فإذا عزم الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن لبشر التقدم على الله ورسوله .

وبينا ما ضرب البخاري من أمثلة من فعل النبي ﷺ ومن فعل الصحابة الكرام ، وأن النبي - صلى الله عليه وسلم - شاور أصحابه يوم أحد في المقام والخروج فرأوا

(١) سنن الترمذي ٥٦٢ / ٤ - ٥٦٣ رقم (٢٢٥) قال هذا حديث حسن صحيح . مسند الإمام أحمد ٢٣١ / ٤ . فيض القدير ٢٩٩ / ٢ .

(٢) تفسير القرطبي ٢١٥٠ / ٤

له الخروج، الخ وأنه - صلى الله عليه وسلم - شاور عليا وأسامة فيما رمى به أهل الإفك عائشة فسمع منهما، حتى نزل القرآن، فجلد الرامين، ولم يلتفت إلى تنازعهم، ولكن حكم بما أمره الله .

وبينا أنه كانت الأئمة بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة؛ ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضع الكتاب أو السنة، لم يتعدوه إلى غيره اقتداء بالنبي ﷺ .

وأيضاً بينا رأي أبي بكر في قتال من منع الزكاة ، فقال عمر : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : (أمرت أن أقاتل الناس) الحديث.^(١) وفي صحيح ابن حبان - وهو يتكلم عن الأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره الدالة على كتابة الله تعالى الحسنة لمن هم بها - عنوان يقول : ذكر تفضل الله - جل وعلا - على من هم بحسنة بكتبتها له وإن لم يعملها ، وبكتبه عشرة أمثالها إذا عملها ، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال الله تبارك وتعالى ﴿إذا هم عبدي بالحسنة فلم يعملها ، كتبت لها حسنة ، فإن عملها كتبتها له عشر حسنات ، وإن هم عبدي بسيئة ، ولم يعملها ، لم أكتبها عليه ، فإن عملها كتبتها واحدة﴾

(١) صحيح البخاري (٩٦) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (٢٨) باب قول الله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ ١٦٢/٨ - ١٦٣. وانظر فتح الباري ١٢/٣٤٠.

قال أبو حاتم رضي الله عنه قوله - جل وعلا: ﴿إِذَا هُمْ عِبَدِي﴾ أراد به إذا عزم فسمى العزم هما لأن العزم نهاية الهم ، والعرب في لغتها تطلق اسم البداءة على النهاية واسم النهاية على البداءة ؛ لأن الهم لا يكتب على المرء لأنه خاطر لا حكم له ، ويحتمل أن يكون الله يكتب لمن هم بالحسنة الحسنة وإن لم يعزم عليها، ولا عملها؛ لفضل الإسلام.

فتوفيق الله العبد للإسلام فضل تفضل به عليه ، وكتبته ما هم به من الحسنات ولما يعملها فضل ، وكتبته ما هم به من السيئات ولما يعملها ، لو كتبها لكان عدلا ، وفضله قد سبق عدله كما أن رحمته سبقت غضبه ، فمن فضله ورحمته ما لم يكتب على صبيان المسلمين ما يعملون من سيئة قبل البلوغ ، وكتب لهم ما يعملونه من حسنة كذلك هذا ولا فرق ^(١)

وتجد مثل هذه الأحاديث وغيرها مما ذكرناه في صحيح ابن حبان ^(٢)

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم:

وأما قوله - صلى الله عليه وسلم: (ان الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به) وفي

(١) صحيح ابن حبان ١/٣٠٠ - ٣٠١.

(٢) صحيح ابن حبان ١/٢٩٨ - ٣٠١.

الحديث الآخر: (إذا هم عبدي بسيئة ، فلا تكتبوا عليه فان عملها فاكتبوها سيئة ، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة ، فان عملها فاكتبوها عشراً) وفى الحديث الآخر: (في الحسنة إلى سبعمائة ضعف) وفى الآخر: (في السيئة إنما تركها من جراي)

فقال الامام المازرى - رحمه الله - مذهب القاضي أبى بكر بن الطيب : أن من عزم على المعصية بقلبه ، ووطن نفسه عليها أثم في اعتقاده وعزمه ، ويحمل ما وقع في هذه الأحاديث وأمثالها على أن ذلك في من لم يوطن نفسه على المعصية، وإنما مر ذلك بفكره من غير استقرار، ويسمى هذا همّاً ، ويفرق بين الهم والعزم.

هذا مذهب القاضي أبى بكر، وخالفه كثير من الفقهاء والمحدثين، وأخذوا بظاهر الحديث.

قال القاضي عياض - رحمه الله - عامة السلف وأهل العلم من الفقهاء والمحدثين على ما ذهب إليه القاضي أبو بكر للأحاديث الدالة على المؤاخذة بأعمال القلوب ، لكنهم قالوا: ان هذا العزم يكتب سيئة ، وليست السيئة التي هم بها؛ لكونه لم يعملها ، وقطعه عنها خوف الله تعالى والإنابة، لكن نفس الإصرار والعزم معصية ، فتكتب معصية ، فإذا عملها كتبت معصية ثانية، فان تركها خشية لله تعالى كتبت حسنة ، كما فى الحديث: (إنما تركها من

جراي) فصار تركه لها لخوف الله تعالى ، ومجاهدته نفسه
الأمانة بالسوء في ذلك ، وعصيانه هواه

فأما الهم الذي لا يكتب فهي الخواطر التي لا توطن
النفس عليها ، ولا يصحبها عقد ولا نية وعزم.

وذكر بعض المتكلمين خلافا فيما إذا تركها لغير خوف
الله تعالى، بل لخوف الناس هل تكتب حسنة ؟ قال: لا ؛ لأنه
إنما حمله على تركها الحياء ، وهذا ضعيف لا وجه له .

هذا آخر كلام القاضي، وهو ظاهر حسن، لا مزيد عليه .

وقد تظاهرت نصوص الشرع بالمؤاخذه بعزم القلب المستقر.^(١)

وقال ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم في
النوع الثالث:

الهمُّ بالحسنات فتكتب حسنة كاملة وإن لم يعملها :
كما في حديث ابن عباس وغيره ، وفي حديث أبي هريرة
الذي خرجه مسلم كما تقدم: (إذا تحدث عبدي بأن يعمل
حسنة فأنا أكتبها له حسنة)^(٢)

(قلت) بين ابن رجب هنا حديث النفس والهم فقال :

والظاهر أن المراد بالتحدث حديث النفس، وهو الهم.

وفي حديث خريم بن فاتك (من هم بحسنة فلم

(١) شرح النووي لصحيح مسلم ١٥١/٢ .

(٢) جامع العلوم والحكم ٣/ ١٣٥ .

يعملها، فعلم الله منه أنه قد أشعر قلبه ، وحرص عليها
كتبت له حسنة^(١)

وهذا يدل على أن المراد بالهم هنا هو العزم المصمم
الذي يوجد معه الحرص على العمل ، لا مجرد الخطرة
التي تخطر ، ثم تتفسخ من غير عزم ولا تصميم.

قال أبو الدرداء : من أتى فراشه - وهو ينوي أن
يصلّي من الليل - فغلبته عيناه حتى يصبح ، كتب له ما
نوى^(٢)

وروى معناه من حديث عائشة عن النبي صلى الله
عليه وآله وسلم.

وقال أبو عمران الجوني : ينادي الملك : اكتب لفلان
كذا وكذا ، فيقول : يا رب إنه لم يعمله ، فيقول الله (إنه
نواه)^(٣).

(١) انظر الحديث في صحيح ابن حبان ٤٥/١٤. وهو بطوله : وانظر مجمع الزوائد ٢١/١.

عن خريم بن فاتك الأسدي قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم (الناس أربعة ، والأعمال ستة ، موجبتان ومثل بمثل ، وحسنة بعشر أمثالها ، وحسنة بسبع مائة ضعف ، والناس موسع عليه في الدنيا والآخرة ، وموسع عليه في الدنيا مقتور عليه في الآخرة ، ومقتور عليه في الدنيا موسع عليه في الآخرة ، ومقتور عليه في الدنيا والآخرة ، وشقي في الدنيا وشقي في الآخرة ، والموجبتان من قال لا إله إلا الله ، أو قال مؤمنا بالله دخل الجنة ، ومن مات وهو يشرك بالله دخل النار ، ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشرة أمثالها ، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له سيئة مضغفة ، ومن أنفق نفقة فاضلة في سبيل الله فبسبع مائة ضعف

(٢) فيض القدير ٢٣/٦ قال الحافظ العراقي : سنده صحيح ، وقال المنذري سنده جيد اهـ. صحيح ابن خزيمة ١٩٥/٢ . المستدرک للحاکم ٤٥٥/١ . السنن الكبرى للبيهقي ١٥/٢ . التمهيد لابن عبد البر ٢٦٣/١٢ .

(٣) تحفة الأحوذى ٣٥٨/٨ . صفوة الصفوة ٢٦٥/٣ .

وقال زيد بن أسلم : كان رجل يطوف على العلماء يقول : من يدلني على عمل لا أزال منه لله عاملا ، فإنني لا أحب أن يأتي عليّ ساعة من الليل والنهار إلا وإني عامل لله تعالى ، ف قيل له : قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت ، فإذا فترت أو تركت ، فهم بعمله ، فإن الهام بفعل الخير كفاعله ، ومتى اقترن بالنية قول أو سعي تأكد الجزاء ، والتحق صاحبه بالعمل ، كما روى أبو كبشة^(١) عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : (إنما الدنيا لأربعة نفر) وذكره بطوله

وقد حمل قوله : وهما في الأجر سواء على استوائهما في أصل أجر العمل دون مضاعفته ، فالمضاعفة يختص بها من عمل العمل دون من نواه ولم يعمله ، فإنهما لو استويا من كل وجه لكتب لمن هم بحسنة ولم يعملها عشر حسنات وهو خلاف النصوص كلها .

ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً ﴾ [النساء : ٩٥ ، ٩٦]

قال ابن عباس وغيره: القاعدون المفضل عليهم درجة، القاعدون من أهل الأعذار، والقاعدون المفضل عليهم

(١) تقدم ترجمته فهو الأنماري الصحابي، وتقدم حديثه فهو عند الترمذي وغيره ، سنن الترمذي ٤ / ٥٦٢ - ٥٦٣ رقم (٢٢٥) . مسند الإمام أحمد ٤ / ٢٣١ . فيض القدير ٢ / ٢٩٩ .

المجاهدون درجات هم القاعدون من غير أهل الأعذار
اهـ. ^(١)

وقال ابن رجب: فيما يخص موضوع السيئات التي هم
بها الإنسان من غير أن يعملها أو عزم على فعلها فقال :

النوع الرابع : الهم بالسيئات من غير عمل لها .

ففي حديث ابن عباس (أنها تكتب حسنة كاملة ،
وكذلك في حديث أبي هريرة وأنس وغيرهما) أنها تكتب
حسنة كاملة. ^(٢)

وفي حديث أبي هريرة (إنما تركها من جرأئي) ^(٣)
يعني: من أجلي، وهذا يدل على أن المراد من قدر على ما
هم به من المعصية، فتركه لله تعالى، وهذا لا ريب في أنه
يكتب له بذلك حسنة؛ لأن تركه المعصية بهذا المقصد عمل
صالح.

فأما إن هم بمعصية ثم ترك عملها خوفا من
المخلوقين ، أو مراعاة لهم ، فقد قيل : أنه يعاقب على
تركها بهذه النية؛ لأن تقديم خوف المخلوقين على خوف
الله محرم ، وكذلك قصد الرياء للمخلوقين محرم، فإذا

(١) جامع العلوم والحكم ٢/ ١٢٥-١٢٧.

(٢) انظر الأحاديث صحيح مسلم ١١٧/١-١١٨. صحيح ابن حبان ١٠٧/٢. سنن
الدارمي ٤١٣/٢. مسند أحمد ١/ ١٧٩. و. ٢٣٤/٢. و. ٤١١/٢. والمعجم الصغير
٢٠٢/١.

(٣) صحيح مسلم ١١٧/١ مسند أحمد ٢/ ٣١٧. فتح الباري ١١/ ٣٢٦. المحلى ١/ ١٨.

اقترن به ترك المعصية لأجله، عوقب على هذا الترك.

وقد خرج أبو نعيم: خوفك من الريح إذا حركت ستر بابك - وأنت على الذنب - ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك، أعظم من الذنب إذا فعلته .

وقال الفضيل بن عياض : كانوا يقولون: ترك العمل للناس رياء، والعمل لهم شرك.

وأما إن سعى في حصولها بما أمكنه ، ثم حال بينه وبينها القدر ، فقد ذكر جماعة أنه يعاقب عليها حينئذ؛ لقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم: (إن الله يتجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل) ومن سعي في حصول المعصية بجهد ثم عجز عنها ، فقد عمل بها .

(قلت) وكذلك حال أهل الجنة ، فهم قد سعوا في حصول المعصية - حرمان الساكنين - بجهدهم لكنهم عجزوا عنها، ليس خوفا من الله تعالى ، ولكن لأن الله تعالى أهلكها .

وكذلك قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قالوا: يارسول الله ! هذا القاتل، فما بال المقتول ؟! قال (إنه كان

حريصاً على قتل صاحبه^(١)

وقوله: (ما لم تتكلم به أو تعمل) يدل على أن الهام بالمعصية إذا تكلم بما هم به بلسانه ، فإنه يعاقب على الهام حينئذ ؛ لأنه قد عمل بجوارحه معصية وهو التكلم باللسان.

ودل على ذلك حديث الذي قال: (لو أن لي مالا لعملت فيه ما عمل فلان) يعني الذي يعصي الله في ماله قال: (فهما في الوزر سواء)^(٢)

ومن المتأخرين من قال: لا يعاقب على التكلم بما هم به ما لم تكن المعصية التي هم بها قولاً محرماً : كالكذب والغيبة والكذب.

فأما ما كان متعلقها العمل بالجوارح ، فلا يَأْثَمُ بمجرد تكلم ما هم به .

وهذا قد يستدل له بحديث أبي هريرة المتقدم: (وإذا تحدث عبدي بما لم يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها)

ولكن المراد بالحديث هنا حديث النفس جمعاً بينه وبين قوله: (ما لم تتكلم به).

(١) صحيح البخاري ٣٠/١ . صحيح مسلم ٢٢١٤/٤ . وتقدم .

(٢) مسند أحمد ٢٣٠/٤ . سنن ابن ماجه ١٤١٣/٢ . المعجم الكبير ٣٤٤/٢٢ . فتح الباري ٣٢٧/١١ .

وحديث أبي كبشة يدل على ذلك صريحاً فإن قول القائل بلسانه (لو أن لي مالا لعملت فيه بالمعاصي كما عمل فلان)^(١) ليس هو العمل بالمعصية التي هم بها وإنما أخبر عما هم به فقط مما متعلقه إنفاق المال في المعاصي ، وليس له مال بالكلية .

وأيضا فالكلام بذلك محرم ، فكيف يكون معفواً منه غير معاقب عليه ؟!

وأما إن انفسخت نيته ، وفترت عزمته من غير سبب منه ، فهل يعاقب على ما هم به من المعصية أو لا ؟ هذا على قسمين :

أحدهما : أن يكون الهم بالمعصية خاطراً خطراً ، ولم يساكنه صاحبه ، ولم يعقد قلبه عليه ، بل تكرهه ونفر منه ، فهو معفو عنه ، وهو كالوساوس الرديئة التي سئل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عنها فقال : (ذلك صريح الإيمان)^(٢)

ولما نزل قوله تعالى : ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ (البقرة ٢٨٤) شق ذلك على المسلمين ، وظنوا دخول هذه الخواطر فيه ، فنزلت الآية بعدها ، وفيها قوله : ﴿ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به﴾ (البقرة ٢٨٦) .

(١) المراجع السابقة . وسنن الترمذي ٥٦٢/٤ قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح

(٢) صحيح مسلم ١١٩/١ . بلفظه . ولفظ (تلك محض الإيمان) .

فبينت أن ما لا طاقة لهم به فهو غير مؤاخذ به، ولا يكلف به^(١)

وقد سمي ابن عباس وغيره ذلك نسخاً.

ومرادهم : أن هذه الآية أزالَت الإِبْهام الواقع في النفوس من الآية الأولى ، وبين أن المراد بالآية الأولى العزائم المصمم عليها، ومثل هذا كان السلف يسمونه نسخاً.^(٢)

ثم بين ابن رجب:

القسم الثاني : العزائم المصممة التي تقع في النفوس وتدوم ويساكنها صاحبها.

فهذا أيضاً نوعان:

أحدهما: ما كان عملاً مستقلاً بنفسه من أعمال القلوب، كالشك في الوجدانية، أو النبوة، أو البعث أو غير ذلك من الكفر، واعتقاد تكذيب ذلك، فهذا كله يعاقب عليه العبد، ويصير بذلك كافراً أو منافقاً.

وقد روى عن ابن عباس أنه حمل قوله تعالى: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ البقرة- ٢٨٤ . على مثل هذا.

وروى عنه حملها على كتمان الشهادة لقوله: ﴿ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾ البقرة - ٢٨٣ .

(١) تفسير النسفي ١/ ١٤٣ .

(٢) جامع العلوم والحكم ٣/ ١٣٥، - ١٣٧

ويلحق بهذا القسم سائر المعاصي المتعلقة بالقلوب كمحبة ما يبغضه الله ، وبغض ما يحب الله ، والكبر ، والعجب والحسد ، وسوء الظن بالمسلم من غير موجب ، مع أنه قد روى عن سفيان أنه قال في سوء الظن: إذا لم يترتب عليه قول أو فعل فهو معفو عنه . وكذلك روى عن الحسن أنه قال ذلك في الحسد .

ولعل هذا محمول من قولهما على ما يجده الإنسان ، ولا يمكنه دفعه ، فهو يكرهه ويدفعه عن نفسه فلا يندفع ، لا على ما يساكنه ويستروح إليه ، ويعيد حديث نفسه به ويبيديه .

والنوع الثاني: ما لم يكن من أعمال القلوب ، بل كان من أعمال الجوارح ، كالزنا والسرقة وشرب الخمر والقتل والقذف ونحو ذلك: إذا أصر العبد على إرادة ذلك والعزم عليه ، ولم يظهر له أثر في الخارج أصلاً ، فهذا في المؤاخذه به قولان مشهوران للعلماء:

أحدهما: الأخذ به ، قال ابن المبارك: سألت سفيان الثوري أيؤاخذ العبد بالهم ؟

فقال : إذا كانت عزمًا أوخذ .

ورجح هذا القول كثير من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين من أصحابنا وغيرهم ، واستدلوا له بنحو قوله

تعالى: ﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾
البقرة - ٢٣٥

وقوله تعالى: ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾
البقرة - ٢٢٥ وبنحو قول النبي ﷺ (الإثم ما حاك في
صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس) وحملوا قوله صلى
الله عليه وآله وسلم: (إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به
أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل) على الخطرات.

وقالوا ما أكنه العبد ، وعقد عليه قلبه ، فهو من كسبه
وعمله ، فلا يكون مغفواً عنه.

ومن هؤلاء من قال : إنه يعاقب عليه في الدنيا
باليهموم والغموم.

والقول الثاني: لا يؤاخذ بمجرد النية مطلقاً ، ونسب
ذلك إلى نص الشافعي، وهو قول ابن حامد من أصحابنا،
عملاً بالعمومات.

اليهم بالمعصية في الحرم:

وروى العوفي عن ابن عباس ما يدل على مثل هذا
القول.

وفيه قول ثالث: أنه لا يؤاخذ باليهم بالمعصية، إلا بأن
يهم بارتكابها في الحرم، كما روى السدي عن مرة عن
عبدالله بن مسعود قال : ما من عبد يهم بخطيئة فلم

يعملها ، فتكتب عليه ، ولو هم بقتل الإنسان عند البيت ، وهو بعدن أبين ، أذاقه الله من عذاب أليم ، وقرأ عبد الله: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ الحج - ٢٥ خرجه الإمام أحمد وغيره.^(١)

وقال الضحاك : إن الرجل ليهم بالخطيئة بمكة ، وهو بأرض أخرى ، ولم يعملها فتكتب عليه وروى أحمد في رواية المروزي حديث ابن مسعود هذا ، ثم قال: أحمد يقول: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾

قال أحمد: لو أن رجلاً بعدن أبين هم بقتل رجل في الحرم ، هذا قول الله تعالى: ﴿نذقه من عذاب أليم﴾ هكذا قول ابن مسعود.^(٢)

ومتى اقترن العمل بالهم فإنه يعاقب عليه ، سواء كان الفعل متأخراً أو متقدماً : فمن فعل محرماً مرة ، ثم عزم على فعله متى قدر عليه ، فهو مصر على المعصية ، ومعاقب على هذه النية ، وإن لم يعد إلى عمله إلا بعد سنين عديدة.

وبذلك فسر ابن المبارك وغيره الإصرار على المعصية

(١) مسند الإمام أحمد ٤٥١/١ . المستدرک للحاکم ٤٣٠/٢ . فتح الباري لابن حجر ٢١٠/١٢ . حلية الأولياء للأصفهاني ٢٨٠/٥ .

(٢) مسند الإمام أحمد ٤٥١/١ . المستدرک للحاکم ٤٣٠/٢ . فتح الباري لابن حجر ٢١٠/١٢ . حلية الأولياء للأصفهاني ٢٨٠/٥ .

وبكل حال فالمعصية إنما تكتب بمثلها من غير مضاعفة، فتكون العقوبة على المعصية، ولا ينضم إليها الهم بها، إذ لو ضم إلى المعصية الهم بها لعوقب على عمل المعصية عقوبتين.

ولا يقال : فهذا يلزم مثله في عمل الحسنة ، فإنها إذا عملها بعد الهم بها أثيب على الحسنة دون الهم بها ؛ لأننا نقول : هذا ممنوع فإن من عمل حسنة كتبت له عشر أمثالها ، فيجوز أن يكون بعض هذه الأمثال جزاء للهم بالحسنة والله أعلم.

وقوله في حديث ابن عباس في رواية مسلم أو مجاهد: يعني أن عمل السيئة إما أن تكتب لعاملها سيئة واحدة ، أو يمحوها الله بما شاء من الأسباب كالتوبة والاستغفار وعمل الحسنات وقد سبق الكلام فيما تمحى به السيئات في شرح حديث أبي ذر^(١) (أتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها).

وقوله بعد ذلك ولا يهلك على الله إلا هالك يعني بعد هذا الفضل العظيم من الله والرحمة الواسعة منه بمضاعفة الحسنات والتجاوز عن السيئات لايهلك على الله إلا من هلك ، وألقى بيده إلى التهلكة ، وتجراً على السيئات ، ورغب عن الحسنات وأعرض عنها، ولهذا قال

(١) جامع العلوم والحكم ٢٢/٢ وما بعدها .

ابن مسعود : ويل لمن غلبت وحداته عشراته.

وعن ابن عباس مرفوعاً هلك من غلب واحد عشر^(١) أهـ.

(قلت) وبهذا نعلم أن من هم بالمعصية ثم لم يعزم على فعلها؛ فإنه لا يؤاخذ على ذلك ، لكن من عزم على فعلها وأصر على ذلك فإنه مؤاخذ به معاقب عليه.

لكن لنرى هل أن أصحاب الجنة كانوا مجرد ناوين أو كانوا عازمين على الفعل ، أو أنهم كانوا مع هذا العزم قد نفذوا ما عزموا عليه ؟

تشير الآية الكريمة أنهم مع العزم الجازم كانوا قد بدؤوا بتنفيذ ما عزموا عليه وذلك كان على مراحل هي :
أنهم أقسموا ليصرمنها ، فالقسم دليل التأكيد على الفعل، ثم إن اللام المرحقة للتأكيد أيضاً.

وكونهم قالوا إنهم ليصرمنها مصبحين هذا يدل على أنهم كانوا ناوين أن لا يسمحوا للفقراء بأي فرصة للحاق بهم ، وأخذ شيء من بستانهم ، ثم إنهم أقسموا أن لا يستثوا وهذا دليل واضح على أنهم كانوا ناوين نية سيئة وكانوا جازمين عليها دون تردد .

ثم إنهم انطلقوا ، وهذا بداية العمل فإنهم لم يكونوا مجرد ناوين بل بدؤوا بالتنفيذ فعلاً: فمشوا من بيوتهم إلى

(١) جامع العلوم والحكم ٣/ ١٣٨ - ١٤٦

بستانهم ، ثم إنهم كانوا يمشون إلى البستان وكانوا في حالة تخفٍّ عن أعين الفقراء ، حيث كانوا يتخافتون - أي يخفون أصواتهم - لئلا يسمعهم أحد من الفقراء فيأتي معهم، ثم إن هذا التخافت كان عن ماذا ؟ لقد كان زيادة على تأكيد ما نوهوا عليه من حرمان الفقراء ، حيث كانوا يتخافتون بأن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وصمموا وظنوا أنهم على ذلك من القادرين: ﴿وغدوا على حرد قادرين﴾

حتى إنهم لما رأوها لم يقتنعوا أنها جنتهم، وأن الله قد أرسل عليها ما يجعلها كالصريم بل قالوا إنا لضالون، وكل هذا يدل على أن أهل الجنة ما كانوا ناوين مجرد نية، ولا كان ما نوه مجرد خاطرة طرأت على أذهانهم ، بل كان عزماً وتصميماً، ثم بدؤوا بتنفيذ ما تشاوروا عليه حسب خطة رسموها وأتقنوها ثم نفذوا ما بيتوه .

الفصل الرابع : مثالان من القرآن الكريم على المؤاخذة على النية:

نتكلم عن مثالين من كتاب الله تعالى بين فيهما - جل جلاله - قيمة النية ، كما بين - جل جلاله - أن للنية أثراً عظيماً في قبول العمل ورده :

المثال الأول: قصة فريقين من الأعراب الذين أنفقوا

واختلفت نياتهم: جاءت هذه القصة في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سِידْخِلَهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩)﴾ التوبة ٩٨-٩٩.

والمثال الثاني قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا

وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾ التوبة ١٠٧ - ١١٠.

ونبدأ بالقصة الأولى فنقول:

لقد بين الطبري في تفسيره معاني الآيات في هذه
القصة فقال : القول في تأويل قوله تعالى: ومن الأعراب^(١)
﴿من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم
دائرة السوء والله سميع عليم﴾

يقول تعالى ذكره : ومن الأعراب من يعد نفقته التي
ينفقها في جهاد مشترك ، أو في معونة مسلم ، أو في بعض
ما ندب الله إليه عباده مغرمًا : يعني غرمًا لزمه لا يرجو
له ثوابًا ، ولا يدفع به عن نفسه عقابًا .

﴿ويتربص بكم الدوائر﴾ يقول : وينتظرون بكم الدوائر
أن تدور بها الأيام والليالي إلى مكروه ، ونفي محبوب ،
وغلبة عدو لكم

يقول الله تعالى ذكره: ﴿عليهم دائرة السوء﴾ يقول:
جعل الله دائرة السوء عليهم، ونزول المكروه بهم، لا عليكم
أيها المؤمنون ولا بكم.

(١) قال الشوكاني في فتح القدير ٣٩٥/٢ : الأعراب : هم من سكن البوادي ، بخلاف العرب
فإنه عام لهذا النوع من بني آدم سواء سكنوا البوادي أو القرى ، هكذا قال أهل اللغة ، ولهذا
قال سيبويه : إن الأعراب صيغة جمع ، وليست بصيغة جمع العرب ، قال النيسابوري : قال
أهل اللغة : رجل عربي : إذا كان نسبه إلى العرب ثابتًا ، وجمعه عرب ، فالأعرابي إذا قيل له
يا عربي فرح ، وإذا قيل للعربي يا أعرابي غضب ، وذلك أن من استوطن القرى العربية فهو
عربي ، ومن نزل البادية فهو أعرابي ، ولهذا لا يجوز أن يقال للمهاجرين والأنصار أعراب ،
وإنما هم عرب ، قال : قيل إنما سمي العرب عربًا : لأن أولاد إسماعيل - عليه السلام -
نشئوا بالعرب ، وهي من تهامة ، فنسبوا إلي بلدهم ، وكل من يسكن جزيرة العرب ، وينطق
بلسانهم ، فهو منهم ، وقيل : لأن ألسنتهم معربة عما في ضمائرهم. ولما في لسانهم من
الفصاحة والبلاغة . انتهى.

﴿والله سميع﴾ لدعاء الداعين.

﴿عليم﴾ بتدبيرهم وما هو بهم نازل من عقاب الله ،
وما هم إليه صائرون من أليم عقابه .

ثم نقل عن العلماء ما يؤيد قوله فقال :

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ثم ذكر
بسنده من قال ذلك من العلماء فقال : قال ابن زيد في
قول الله : ﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرمًا ويتربص
بكم الدوائر﴾ قال : هؤلاء المنافقون من الأعراب الذين
إنما ينفقون رياء اتقاء أن يغزوا أو يحاربوا أو يقاتلوا ،
ويرون نفقتهم مغرمًا ألا تراه يقول : ﴿ويتربص بكم الدوائر
عليهم دائرة السوء﴾ اهـ .

ثم انقل ما قاله عمن نياتهم طيبة فقد قال :

القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ومن الأعراب من يؤمن
بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات
الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله
غفور رحيم﴾

يقول تعالى ذكره : ومن الأعراب من يصدق الله ، ويقر
بوحدانيته ، وبالبعث بعد الموت ، والثواب والعقاب ، وينوي
بما ينفق من نفقة في جهاد المشركين ، وفي سفره مع
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قربات عند الله .

القربات: جمع قُرْبَةٍ ، وهو ما قربته من رضا الله ومحبته .

﴿وصلوات الرسول﴾ يعني بذلك : وبيتغي بنفقة ما ينفق مع طلب قربته من الله دعاء الرسول واستغفاره له .
قال الطبري: وقد دللنا فيما مضى من كتابنا على أن من معاني الصلاة الدعاء بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع .

ثم بين من قال بهذه الأقوال من السلف ، فقال:
وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل فذكر من قال ذلك فقال:

عن ابن عباس: قوله: ﴿وصلوات الرسول﴾ يعني استغفار النبي عليه الصلاة والسلام .

عن قتادة: قوله: (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول) قال: دعاء الرسول .

وقال: هذه ثنية الله من الأعراب ^(١) .

ثم بين من هم هؤلاء الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر فقال:

عن مجاهد: قوله: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله

(١) أي أن الله تعالى لما ذكر الأعراب في القسم الأول الذين جعلوا نفقاتهم مغرمًا استثنى هؤلاء فقال (ومن الأعراب) الآية، أو من قوله تعالى (الأعراب أشد كفرًا ونفاقًا) والله أعلم .

واليوم الآخر ﴿ قال: هم بنو مقرن من مزينة ، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً﴾ .

قال الطبري:

وقال ابن جريج قوله: ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً﴾ ثم استثنى فقال: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ الآية.

عن البخاري بن المختار العبدى قال: سمعت عبد الله ابن مغفل قال: كنا عشرة ولد مقرن، فنزلت فينا: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ إلى آخر الآية. قال الله: ﴿ألا إنها قربة لهم﴾ يقول تعالى ذكره: ألا إن صلوات الرسول قربة لهم من الله.

وقد يحتمل أن يكون معناه ألا إن نفقته التي ينفقها كذلك قربة لهم عند الله.

﴿سيدخلهم الله في رحمته﴾ يقول: سيدخلهم الله في من رحمه فأدخله برحمته الجنة.

﴿إن الله غفور﴾ لما اجترموا.

﴿رحيم﴾ بهم مع توبتهم وإصلاحهم أن يعذبهم ^(١).

ونقل السيوطي في الدر المنثور : عن الضحاك في

(١) تفسير الطبري ١١/٤-٦

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ مَغْرَمًا﴾^(١) يعني أنه لا يرجو له ثواباً عند الله ، ولا مجازاة ، وإنما يعطي ما يعطي من صدقات ماله كرها ، ويتربص بكم الدوائر: الهلكات .

عن ابن زيد في قوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ مَغْرَمًا﴾ قال: هؤلاء المنافقون من الأعراب الذين إنما ينفقون رياءً اتقاء على أن يغزوا ويحاربوا ويقاتلوا، ويرون نفقاتهم مغرمًا .

عن السدي في قوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ مَغْرَمًا﴾ أي يعد ما ينفق في سبيل الله غرامة يغرمه، ويتربص بمحمد - صلى الله عليه وسلم - الهلاك^(١) .

عن مجاهد: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُوْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ قال: هم بنو مقرن من مزينة، وهم الذين قال الله ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ التوبة - الآية ٩٢ .

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ : يعني استغفار النبي - صلى الله عليه وسلم .

وفي تفسير الثعالبي:

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ مَغْرَمًا﴾ الآية نص في المنافقين منهم .

(١) الدر المنثور للسيوطي ٢٦٧/٤ - ٢٦٨ ،

والدوائر: المصائب، ويحتمل أن تشتق من دوران الزمان.

والمعنى : ينتظر بكم ما تأتي به الأيام وتدور به.

ثم قال على جهة الدعاء ﴿عليهم دائرة السوء﴾ وكل ما كان بلفظ دعاء من جهة الله - عز وجل - فإنما هو بمعنى إيجاب الشيء ؛ لأن الله لا يدعو على مخلوقاته وهي في قبضته.

ومن هذا ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾ ﴿ويل للمطففين﴾ فهي كلها أحكام تامة تضمنها خبره تعالى .

وهذه قاعدة جيدة ، وما وقع له رحمه الله ^(١) مما ظاهره مخالف لهذه القاعدة وجب تأويله بما ذكره هنا، وقد وقع له ذلك بعد هذا في قوله: (صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) قال: يحتمل أن يكون دعاء عليهم ، ويحتمل أن يكون خبرا أي استوجبوا ذلك، وقد أوضح ذلك عند قوله تعالى: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ فأنظره هناك وقوله سبحانه: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله﴾

وروي أن هذه الآية نزلت في بني مقرن، وقاله مجاهد (ويتخذ) في الآيتين بمعنى يجعله قصده والمعنى ينوي بنفقته ما ذكره الله عنهم.

(١) لم يتقدم ذكر أحد نقل عنه الثعالبي وقد تقدم رمز ت. وهو قد أراد بها (قلت) كما ذكر ذلك في المقدمة.

وصلوات الرسول دعاؤه، ففي دعائه خير الدنيا والآخرة، والضمير في قوله إنها يحتمل عوده على النفقة ويحتمل عوده على الصلوات^(١)

وفي تفسير الواحدي نجد بيان الآية مختصراً فقد قال:

﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرمًا﴾ لأنه لا يرجو له ثواباً.

﴿ويتربص بكم الدوائر﴾ وينتظر أن ينقلب الأمر عليكم بموت الرسول عليه الصلاة والسلام.

﴿عليهم دائرة السوء﴾ عليهم يدور البلاء والخزي فلا يرون في محمد ودينه إلا ما يسوؤهم.

ثم نزل فيمن أسلم منهم ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله﴾ يتقرب بذلك إلى الله عز وجل.

﴿وصلوات الرسول﴾ يعني دعاءه بالخير والبركة، والمعنى أنه يتقرب بصدقته ودعاء الرسول إلى الله ﴿ألا إنها قربة لهم﴾ أي نور^(٢)

من هذا العرض للآيات التي ذكرت الفريقين من

(١) تفسير الثعالبي ١٤٨/٢ و ١٥٠.

(٢) تفسير الواحدي ٤٧٨،/١

المنافقين فريق ينفق ونيته أن هذه النفقة ما هي إلا جزية ومغرمٌ ، ويتربص بالمسلمين الدوائر والمهلكات ، وفريق آخر أنفق كما أنفق الفريق الأول لكنه كان ينفق لأنه كان يعتقد أن هذه النفقة تقربه إلى الله تعالى ، فقال الله تعالى: عن الفريق الأول ذي النية السوء ﴿عليهم دائرة السوء﴾

وقال الله تعالى: عن الفريق الثاني ذي النية الحسنة ﴿ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته﴾^(١)

وأما المثال الثاني فهو قصة الذين اتخذوا مسجداً ضراراً .

وجاءت قصتهم في قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾ التوبة.

(١) ٩٧ - ٩٩ التوبة.

١- مَنْ المراد بهؤلاء الذين اتخذوا مسجداً ضراراً في قوله تعالى: ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً﴾^(١) ؟

قال ابن إسحاق : هم اثنا عشر من الأنصار : خدام بن خالد^(٢) وثعلبة بن حاطب ، وهو من بني أمية بن زيد ، ومعتب بن قشير ، وأبو حبيبة بن الأزعر ، وعباد بن حنيف ، وجارية بن عامر ، وإبناه مجمع وزيد ، ونبتل بن الحارث ، وبحرز ، وبجاد بن عثمان ، ووديعة بن ثابت^(٣)

وقال الطبري : وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً ، خدام بن خالد من بني عبيد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف ، ومن داره أخرج مسجد الشقاق ، وثعلبة بن حاطب من بني عبيد ، وموالي^(٤) بني أمية بن زيد ، ومعتب بن قشير من بني ضبيعة بن زيد ، وأبو حبيبة بن الأزعر ، من بني ضبيعة بن زيد ، وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف ، من بني عمرو بن عوف ، وحارثة بن عامر ، وإبناه مجمع بن حارثة ، وزيد بن حارثة ، ونبتل بن الحارث ، وهم من بني ضبيعة ، ومخرج ، وهم من بني ضبيعة ، وبجاد بن عمران

(١) ١٠٧ التوبة .

(٢) خدام بن خالد ، وقيل بن وديعة ويكنى أبا وديعة ، وهو والد خنساء ، روى الموطأ والبخاري من طريق خنساء بنت خدام أن أباهما زوجها وهي بنت فكرت ذلك ... الحديث

الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ١ / ٤٢١ . ترجمة ٢٢٢٢ .

(٣) الإتيان في علوم القرآن ٢ / ٢٨٧ .

(٤) في تفسير الطبري ١٨ / ١١ . (وهو إلى بني) في كل ما يماثله .

وهو من بني ضبيعة ، ووديعة بن ثابت ، وموالي بني أمية
رهط أبي لبابة بن عبد المنذر^(١)

٢- سبب نزول آيات مسجد الضرار وقصته:

قال ابن كثير في تفسيره:

مسجد الضرار: سبب نزول هذه الآيات الكريمات: أنه
كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم
إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب وكان قد
تنصر في الجاهلية ، وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه
عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مهاجراً إلى المدينة،
 واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية،
وأظهرهم الله يوم بدر ، شرق^(٢) اللعين أبو عامر بريقه،
وبارز بالعداوة ، وظاهر بها ، وخرج فاراً إلى كفار مكة من
مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب،
وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم
الله - عز وجل - وكانت العاقبة للمتقين.

وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين،

(١) تفسير ابن كثير ٣٨٨/٢ تفسير الطبري ٢٣/١١

(٢) شرق: أي غص ، يقال: شرق فلان بريقه . الوسيط ٤٨٠/١ (شرق) أي أظهر
الحسد الذي كان يخفيه.

فوقع في إحداهن رسول الله - صلى الله عليه وسلم،
وأصيب ذلك اليوم: فجرح وجهه، وكسرت رباعيته اليمنى
السفلى ، وشج رأسه - صلوات الله وسلامه عليه -

وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار،
فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته ، فلما عرفوا
كلامه قالوا : لا أنعم الله بك عيناً يافاسق ياعدو الله
ونالوا منه ، وسبوه ، فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب
قومي بعدي شر.

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد دعاه
إلى الله قبل فراره ، وقرأ عليه من القرآن فأبى أن يسلم،
وتمرد، فدعا عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم أن
يموت بعيداً طريداً ، فنالت هذه الدعوة ، وذلك أنه لما فرغ
الناس من أحد، ورأى أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم -
في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره
على النبي - صلى الله عليه وسلم - فوعده ومناه - وأقام
عنده - وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل
النفاق والريب يعدهم ويمنيهم : أنه سيقدم بجيش يقاتل به
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويغلبه ويرده عما هو
فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من
يقدم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم
بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء،

فبنوه وأحكموه ، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى تبوك ، وجاءوا فسألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ؛ ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية ، فعصمه الله من الصلاة فيه ، فقال إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا - إن شاء الله - فلما قفل - عليه الصلاة والسلام - راجعاً إلى المدينة من تبوك ، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم ، أو بعض يوم ، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار ، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة.

ثم بين ابن كثير رواية بسنده إلى ابن عباس تبين بعض ما لم يكن في الرواية السابقة فقال :

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية هم أناس من الأنصار بنوا مسجداً فقال لهم أبو عامر ابنوا مسجداً ، واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فإني ذاهب إلى قيصر - ملك الروم - فآتي بجند من الروم ، وأخرج محمداً وأصحابه فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالوا له:

قد فرغنا من بناء مسجدنا ، فنحب أن تصلي فيه ، وتدعو لنا بالبركة ، فأنزل الله - عز وجل ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ إلى قوله ﴿الظالمين﴾.

كذا روي عن سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعروة بن الزبير، وغير واحد من العلماء.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قالوا : أقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعني من تبوك حتى نزل بذي أوان - بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار- وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك ، فقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة، والليلة المطيرة ، والليلة الشتوية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه ، فقال: (إني على جناح سفر ، وحال شغل - أو كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولو قد قدمنا - إن شاء الله تعالى- أتيناكم فصلينا لكم فيه) فلما نزل بذي أوان ، أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مالك ابن الدخشم - أخا بني سالم بن عوف - ومعن بن عدي، أو أخاه عامر بن عدي أخا بلعجلان ، فقال: (انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه) فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف - وهم رهط مالك بن

الدخشم - فقال مالك لعن : انظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي ، فدخل أهله فأخذ سعفاً من النخل ، فأشعل فيه ناراً ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد ، وفيه أهله ، فحرقاه وهدماه ، وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم من القرآن ما نزل ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً﴾ إلى آخر القصة

وقوله ﴿وليحلفن﴾ أي الذين بنوه (إن أردنا إلا الحسنى) أي ما أردنا ببنائه إلا خيراً ورفقاً بالناس .

قال الله تعالى: ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ أي فيما قصدوا وفيما نووا وإنما بنوه ضراراً لمسجد قباء وكفراً بالله وتفرقاً بين المؤمنين ، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وهو أبو عامر الفاسق الذي يقال له الراهب لعنه الله .

وقوله ﴿لا تقم فيه أبداً﴾ نهي له - صلى الله عليه وآله وسلم - والأمة تبع له في ذلك على أنه يقوم فيه أي يصلي أبداً ثم حثه على الصلاة بمسجد قباء الذي أسس من أول يوم بنائه على التقوى ، وهي طاعة الله وطاعة رسوله ، وجمعاً لكلمة المؤمنين ، ومعقلاً وموثلاً للإسلام وأهله .

ولهذا قال تعالى: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾ والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء^(١)

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٨٧-٣٨٩ . وتفسير الطبري ٢٣/١١ وما بعدها .

الفصل الخامس : نتيجة الندم الذي ندمه أصحاب الجنة

عرف أصحاب الجنة أن عملهم كان كفرًا بنعمة الله تعالى عليهم ؛ لذلك فمن نعم الله تعالى عليهم أنهم عرفوا الحق ، فرجعوا إلى الله تعالى ، وأنابوا إليه مما عملوا وقال لهم أوسطهم: ﴿ألم أقل لكم لولا تسبحون﴾ فاستجابوا له وقالوا جميعاً ﴿سبحان ربنا إنا كنا ظالمين﴾ ثم قال الله تعالى عنهم: ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين﴾ فهذا الندم على الفعل الذي صدر منهم وتسبيحهم لله تعالى جعلهم في مصاف المستغفرين الله تعالى ، ومن يستغفر من الذنب فإن الله تعالى يغفره له ، ثم إنهم رغبوا في مغفرة الله تعالى وعفوه عنهم فقالوا: ﴿عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون﴾ ولذلك سأتكلم في هذا الفصل عن مغفرة ذنوب التائبين ، والمستغفرين ، والراجعين إلى الله تعالى ، والراغبين في فضله :

ففي مسند الإمام أحمد من رواية أخشن السدوسي قال: دخلت على أنس رضي الله عنه فقال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: (والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله لغفر لكم) ^(١)

(١) فيض القدير ٣١٢/٥ قال الهيثمي : رجاله ثقات . الأحاديث المختارة ٤/٢٧٧ و ٢٧٨ . مسند أحمد ٣/٢٣٨ . مسند أبي يعلى ٧/٢٢٦ .

وقد تضمن حديث أنس رضي الله عنه أن من الأسباب التي يحصل بها المغفرة ، الدعاء مع الرجاء ، فإن الدعاء مأمور به ، وموعود عليه بالإجابة ، كما قال تعالى: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ ٦٠ - غافر

وفي السنن الأربعة عن النعمان بن بشير عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم - قال (إن الدعاء هو العبادة)^(١) ثم تلا هذه الآية

وفي حديث آخر خرجه الطبراني مرفوعاً (من أعطي الدعاء أعطي الإجابة ؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾^(٢)

و قال صلى الله عليه وسلم: (أربع من أعطيهن لم يمنع من الله من أربع : من أعطي الدعاء لم يمنع الإجابة ، قال الله تعالى: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ و من أعطي الاستغفار لم يمنع المغفرة ، قال الله تعالى: ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفاراً﴾ ومن أعطى الشكر لم يمنع الزيادة، قال الله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ ومن أعطي التوبة لم يمنع القبول، فإنه قال: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات﴾ و هذه كلها على الحقائق لا على التجويز:

(١) سنن الترمذي ٢١١/٥ : حسن صحيح . مسند أحمد ٢٦٧/٤ و ٢٧١ . صحيح ابن حبان ١٧٢/٣ . المستدرک للحاکم ٦٦٧/١ . موارد الضمان ٥٩٥/١ . سنن أبي داود ٧٦/٢ . سنن ابن ماجه ١٣٥٨/٢ .

(٢) مجمع الزوائد ١٤٨/١٠ . المعجم الأوسط للطبراني ١١٨/٧ . المعجم الصغير ١٩٨/٢ .

فحقيقة الاستغفار أن يرى العبد عند الذنب خروجه من ستر ربه و تعريه ، فيأخذه الحياء كما يستحي إذا سلب عنه ثوبه في ملأ عظيم ، فيعزى في ذلك الملأ فينقبض من الحياء .

وحقيقة الشكر: أن يرى النعمة منه رؤية القلب خلقه وتربيته و سياقته وإيصاله إليه فيأخذه من أجل ذلك من الخجل ما يأخذه ممن أهدى إليه نعماً كثيرة كرات و مرات و دفعات .

وحقيقة التوبة: أن يرى إباقه من مولاه ، فيرجع إليه بندم واعتذار ووجل وحياء ، فيعزم على التوطن عنده بين يديه أشد من عزم من أبق من الآدمي ، وقد أحسن إليه كل الإحسان ، ومناه العتق والبر واللفظ ، فلما عاد إليه تأسف على نفسه خجلاً من فعله ، وثقل عليه أن يتراءى له من شدة ما يعلوه من الحياء، فهو يتستر منه بكل شيء ويتوطن أن لا يفارقه إلى الممات .

وحقيقة الدعاء: أن يسأله سؤال من أحضر قلبه كما أحضر بدنه بتضرع و سؤال مضطر^(١)

قال ابن رجب: لكن الدعاء سبب مقتضٍ للإجابة مع استكمال شرائطه، وانتفاء موانعه ، وقد تتخلف الإجابة

(١) نواذر الأصول في أحاديث الرسول للحكيم الترمذي ٢ / ٢١١ ذكر الحديث بدون سند ، وشرحه ، ونقلته بتصريف يسير اهـ .

لانتفاء بعض شروطه ، أو وجود بعض موانعه وآدابه. ^(١)

فقد بين هناك أربعة أسباب تقتضي الإجابة :

أحدها : إطالة السفر.

والثاني : حصول التبذل في اللباس ، والهيئة بالشعث

والإغبار.

والثالث : مدُّ يديه إلى السماء .

والرابع : الإلحاح على الله تعالى بتكرير ذكر ربوبيته ^(٢)

وقال وهو يتكلم عن الدعاء :

ومن أعظم شرائطه : حضور القلب ، ورجاء الإجابة

من الله تعالى ، كما خرجه الترمذي من حديث أبي هريرة

عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم قال : (ادعوا الله

وأنتم موقنون بالإجابة ، وإن الله تعالى لا يقبل دعاء من

قلب غافل لاه) ^(٣)

وعن أبي ذر عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

قال يقول الله تعالى : (من تقرب مني شبراً تقربت منه

ذراعاً ، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً ، ومن أتاني

يمشي أتيته هرولة ، ومن لقيني بقرباب الأرض خطيئة - لا

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ٢٣٨/١ . وأسباب الإجابة في ٢٥٢/١ وما بعدها ، وبين الموانع في ٢٥٨/١ .

(٢) أي أكثر من قول يا رب .

(٣) المستدرك للحاكم ٦٧٠/١ . سنن الترمذي ٥١٧/٥ حديث غريب . فتح الباري ٣٨٦/١٢ . نوادر الأصول في أحاديث الرسول للترمذي ١٢٦/٤ .

يشرك بي شيئاً - لقيته بقربابها مغفرة (١)

(قلت) فإنه قال عند قوله ﷺ (... يمد يده إلى السماء يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك) (٢)
قال ابن رجب : هذا الكلام أشار فيه (إلى آداب الدعاء وإلى الأسباب التي تقتضي إجابته ، وإلى ما يمنع من إجابته فذكر من الأسباب التي تقتضي إجابة الدعاء أربعة :

أحدها : إطالة السفر ، والسفر بمجردة يقتضي إجابة الدعاء كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن : دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر ، ودعوة الوالد لولده) خرجاه أبو داود والترمذي وعنده (ودعوة الوالد على ولده) (٣)

والثاني : حصول التبذل في اللباس ، والهيئة بالشعث والاغبرار كما في حديث (رب أشعث أغبر ذي طمرين ، مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله لأبره) (٤)

الثالث : مد يديه إلى السماء وهو من آداب الدعاء التي يرجى بسببها إجابته .

(١) صحيح البخاري ٢٦٩٤/٦ . صحيح مسلم ٢٠٦١/٤ . صحيح ابن حبان ٤٨٥/٤ . سنن الترمذي ٥٨١/٥ . تأويل مختلف الحديث ٢٧٤ فتح الباري ١٣/٤٨٤ تحفة الأحوزي ٤٧/١٠ .

(٢) صحيح مسلم ٧٠٣/٢ مسند الإمام أحمد ٣٢٨/٢ سنن الترمذي ٢٢٠/٥ . مصنف عبد الرزاق ٢٠/٥ . شعب الإيمان ٥٥/٢ الزهد لابن المبارك ١٥٥ .

(٣) سنن الترمذي ٣١٤/٤ . قال أبو عيسى هذا حديث حسن و . ٥٠٢/٥ . صحيح ابن حبان ٤١٦/٦ . موارد الضمان ٥٩٧/١ . سنن أبي داود ٨٩/٢ .

(٤) المستدرک للحاکم ٢١٤/٤ . الأحاديث المختارة ٢٥٤/٥ مجمع الزوائد ٢٦٤/١ . المعجم الوسيط ٢٦٤٠/١

وفي حديث سلمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ (إن الله تعالى حيي إذا رفع الرجل يديه أن يردهما صفراً خائبتين)^(١) إه ومن أعظم شرائطه : حضور القلب , ورجاء الإجابة من الله تعالى , كما تقدم قريباً .

وفي المسند عن عبد الله بن عمرو عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال : (إن هذه القلوب أوعى : فبعضها أوعى من بعض ، فإذا سألتهم الله فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة ، فإن الله لا يستجيب لعبد دعاء من مظهر قلب غافل)^(٢) ولهذا نهى العبد أن يقول في دعائه : (اللهم اغفر لي إن شئت ، ولكن ليغزم المسألة ، فإن الله لا مكروه له)^(٣) ونهى أن يستعجل ، ويترك الدعاء لاستبطاء الإجابة ، وجعل ذلك من موانع الإجابة ، حتى لا يقطع العبد رجاءه من إجابة دعائه ولو طالّت المدة ، فإنه سبحانه يحب الملحين في الدعاء .

وجاء في الآثار (إن العبد إذا دعا ربه - وهو يحبه - قال : (يا جبريل لا تعجل بقضاء حاجة عبدي ، فإني أحب أن أسمع صوته)^(٤)

(١) صحيح ابن حبان ١٦٠/٣ . سنن الترمذي ٥٥٦/٥ حديث حسن . سنن أبي داود ٧٨/٣ . سنن البيهقي الكبرى ٢١١/٢ فتح الباري ١٤٣/١١ .

(٢) مجمع الزوائد ١٤٨/١٠ : رواه أحمد وإسناده حسن . مسند الإمام أحمد ١٧٧/٢ . مصنف ابن أبي شيبة ١٢٦/٦ . فيض القدير ٢٢٢/٢ .

(٣) صحيح مسلم ٢٠٦٣/٤ . صحيح البخاري ٥ ٢٣٣٤ . صحيح ابن حبان ٢٥٧/٣ سنن الترمذي ٥٢٦/٥ سنن البيهقي الكبرى ١٥٠/٦ .

(٤) فيض القدير ١٤٥/١ . الفردوس بمأثور الخطاب ١٩٧/١ .

وفي المعجم الأوسط ج: ٨ ص: ٢١٦ ومجمع الزوائد
للهيثمي ١٥١/١٠

عن جابر بن عبد الله عن رسول الله - صلى الله عليه
وسلم: قال: (إن العبد يدعو الله - وهو يحبه - فيقول الله
عز وجل: (يا جبريل أقض لعبدي هذا حاجته وأخرها؛
فإني أحب أن أسمع صوته ، وإن العبد ليدعو الله - وهو
يبيغضه - فيقول الله عز وجل: (يا جبريل اقض لعبدي هذا
حاجته وعجلها، فإني أكره أن أسمع صوته)
وقال تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ إن رحمت الله
قريب من المحسنين ﴿٥٦﴾ - الأعراف

فما دام العبد يلح في الدعاء ، ويطمع في الإجابة من
غير قطع الرجاء ، فهو قريب من الإجابة ، ومن أدام قرع
الباب يوشك أن يفتح له .

وعن أنس مرفوعاً (لا تعجزوا عن الدعاء ، فإنه لن
يهلك مع الدعاء أحد) ^(١)

ومن أهم ما يسأل العبد ربه : مغفرة ذنوبه ، وما
يستلزم ذلك ، كالنجاة من النار ، ودخول الجنة .

وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

(١) صحيح ابن حبان ١٥٢/٣ . الأحاديث المختارة ١٣٦/٥ - ١٣٧ وقد رواه معلى بن
أسد عن عمر أيضا وإسناده صحيح . موارد الضمآن ٥٩٥/١ . فيض القدير
٤١٢/٦ قال : تساهل الحاكم في تصحيحه . جامع العلوم والحكم ٢٩٢/١ .

(حولها ندندن)^(١)

يعني حول سؤال الجنة والنجاة من النار.

وقال أبو مسلم الخولاني: ما عرضت لي دعوة فذكرت النار ، إلا صرفتها إلى الاستعاذة منها .

ومن رحمة الله تعالى بعبده ، أن العبد يدعو به بحاجة من الدنيا ، فيصرفها عنه ، يعوضه خيراً منها : إما أن يصرّف عنه بذلك سوءاً ، أو يدخرها له في الآخرة ، أو يغفر له بها ذنباً ، كما في المسند والترمذي من حديث جابر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (ما من أحد يدعو بدعاء ، إلا آتاه الله ما سأل ، أو كف عنه من السوء مثله ، ما لم يدع بإثم ، أو قطيعة رحم)^(٢)

وعن أبي سعيد عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: (ما من مسلم يدعو بدعوة ، ليس له فيها إثم ، أو

(١) سنن أبي داود ٢١٠/١ . عن أبي صالح عن بعض أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : قال النبي - صلى الله عليه وسلم - لرجل (كيف تقول في الصلاة) قال : أتشهد وأقول : اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار ، أما إني لا أحسن ندندتك ولا ندندن معاذ ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (حولها ندندن) وسكت عنه . الجرح والتعديل ٢٥٠/٩ وثق الرواة . صحيح ابن حبان ١٤٩/٣ سنن ابن ماجه ٢٩٥/١ . موارد الضمان ١٣٧/١ . مسند أحمد ٤٧٤/٣ . الدندن : أن يتكلم الرجل بالكلام تسمع نغمته ولا يفهم ، وهو أرفع من الهينة قليلا اهـ . النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير مادة (دندن)

(٢) سنن الترمذي ٤٦٤/٥ حديث حسن صحيح غريب . مسند الإمام أحمد ٣٦٠/٣ . تحفة الأحوزي ١٨/١٠ . فيض القدير ٤٦٧/٥ قال القرطبي في تفسيره ٣١٠/٢ : خرج أبو عمر بن عبد البر وصححه أبو محمد عبد الحق وهو في الموطأ منقطع السند اهـ . جامع العلوم والحكم ٢٩٢/١ .

قطيعة رحم ، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يكشف عنه من السوء مثلها قالوا : إذا نكث ؟ قال: (الله أكثر)^(١) وخرجه الطبراني وعنده (أويغفر له بها ذنباً قد سلف) بدل قوله: (أو يكشف عنه من السوء مثلها) وخرج الترمذي من حديث عبادة مرفوعاً نحو حديث أبي سعيد أيضاً^(٢)

وبكل حال فالإلحاح بالدعاء بالمغفرة مع رجاء الله تعالى موجب للمغفرة ، والله تعالى يقول ﴿أنا عند ظن عبدي بي ، فليظن بي ما شاء﴾ وفي رواية (فلا تظنوا بالله إلا خيراً)^(٣)

ويروى من حديث سعيد بن جبير عن ابن عمر مرفوعاً (يأتي الله بالمومن يوم القيامة ، فيقربه حتى يجعله في حجاب من جميع الخلق ، فيقول له: أقرأ ، فيعرفه ذنباً

(١) سنن الترمذي ٥٦٦/٥: حديث حسن صحيح غريب . الأحاديث المختارة ٨ / ٢٦٢ . مجمع الزوائد للهيثمي ١٠ : ١٤٨ رواه أحمد ورجاله ثقات ، ورواه أبو يعلى وفيه مدلس وبقية رجاله ثقات . مسند الإمام أحمد ١٨ / ٣ .

(٢) مجمع الزوائد ١٠ / ١٤٧ عن عبادة بن الصامت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: (ما على وجه الأرض من رجل مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه إياها ، أو كف عنه من السوء مثلها ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، ما لم يعجل) قالوا : يا رسول الله وما استعجاله ؟ قال: (يقول قد دعوت ودعوت فلم يستجب لي) فقال رجل من القوم : إذا نكث يا رسول الله قال: (الله أكثر) قلت رواه الترمذي باختصار (٣) صحيح البخاري ٦ / ٢٦٩٤ . صحيح مسلم ٤ / ٣٠٦١ . صحيح ابن حبان ٢ / ٤٠١ . المستدرک للحاکم ٤ / ٢٦٨ . سنن الترمذي ٥ / ٥٨١ . مسند الإمام أحمد ٢ / ٢٥١ .

ذنباً) أتعرف ؟ أتعرف ؟ (فيقول: نعم نعم ، ثم يلتفت العبد
 يمينة ويسرة، فيقول الله تعالى: ﴿لا بأس عليك يا عبدي ،
 أنت في ستري من جميع خلقي ، ليس بيني وبينك اليوم
 أحد يطلع على ذنوبك غيري ، فقد غفرتها لك ، بحرف
 واحد من جميع ما أتيتني به﴾ قال : ما هو يا رب ؟ قال:
 (كنت لا ترجو العفو من أحد غيري)^(١) فما أعظم نعمة الله
 تعالى على التائبين الراجين ؟!

فمن أعظم أسباب المغفرة أن العبد إذا أذنب ذنباً لم
 يرج مغفرته من غير ربه ، ويعلم أنه لا يغفر الذنوب ويأخذ
 بها غيره.

وقد سبق ذكر ذلك في شرح حديث أبي ذر (يا عبادي
 إني حرمت الظلم على نفسي)^(٢) وقوله: (إنك ما دعوتني
 ورجوتني ، غفرت لك ما كان منك ولا أبالي)^(٣)

(١) مجمع الزوائد للهيثمى ٣٧/٧ .

قوله تعالى: (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) عن سعيد بن جببر قال : قلت لابن عمر - رضي الله عنه - حدثني حديثاً سمعته من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: (يأتي الله بالعبد يوم القيامة حتى يجعله في حجاب ، فيقول له: " اقرأ صحيفتك " فيقرأ ويقرره بذنوب ذنب ويقول: " أتعرف أتعرف ؟ فيقول: نعم يا رب ، فيقرأ فيلتمت يمينة ويسرة فيقول : لا بأس عليك يا عبدي ، إنك ليس بيني وبينك من يطلع على ذنوبك غيري ، اذهب فقد غفرتها لك " فيقال له : ادخل الجنة ، وأما الكافر ، فيقال على رؤوس الأشهاد " هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين " رواه الطبراني وفيه القاسم بن بهرام وهو ضعيف .

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ١٧٧/٢ وما بعدها ، فينظر هناك .

(٣) كشف الخفاء ١٩٩/٢ قال : رواه الترمذي وحسنه عن أنس ، والطبراني عن ابن عباس ، والبيهقي عن أبي ذر ، وابن النجار عن أبي هريرة بلفظ (قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما....) وذكره اهـ. سنن الترمذي ٥٤٨/٥ : حدثنا أنس بن مالك قال سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: (قال الله : يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي ، يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا بن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي) شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة) قال أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . جامع العلوم والحكم ٣٩٣/١

يعني على كثرة ذنوبك وخطاياك ، ولا يتعاضمني ذلك
ولا أستكثره.

وفي الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم -
قال: (إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة ، فإن الله لا يتعاظمه
شيء)^(١)

فذنوب العبد - وإن عظمت - فإن عفو الله ومغفرته
أعظم منها وأعظم ، فهي صغيرة في جنب عفو الله
ومغفرته.

وفي صحيح الحاكم عن جابر : أن رجلا جاء إلى
النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو يقول : واذنوباه،
مرتين أو ثلاثا ، فقال له النبي - صلى الله عليه وآله
وسلم: (قل اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي ، ورحمتك
أرجى عندي من عملي) فقالها ، ثم قال له: (عد) فعاد ، ثم
قال له: (عد) فعاد فقال له: (قم قد غفر الله لك)^(٢)

وفي هذا المعنى يقول بعضهم :

يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر
أعظم الأشياء في جانب عفو الله تغفر

(١) صحيح مسلم ٢٠٦٣/٤ مسند أبي يعلى ٢٨١/١١ . شرح سنن ابن ماجه ٣٠٧/١ .
(٢) المستدرک للحاکم ٧٣٨/١ . شعب الإيمان ٤٣٠/٥ . قال أبو عبد الله : رواه
مدنيون لا يعرف واحد منهم بجرح . الترغيب والترهيب للمنذري ٢١١/٣ . فيض
القدير ٥٢٢/٤ .

وقال آخر :

يارب إن عظمت ذنوبي كثرةً فلقد علمت بأن عفوك أعظمُ
إن كان لا يرجوك إلا محسنٌ فمن ذا الذي يدعو ويرجو المجرمُ
مالي إليك وسيلة إلا الرجا وجميل عفوك ثم إنني مسلمُ
السبب الثاني للمغفرة :

الاستغفار، ولو عظمت الذنوب ، وبلغت الكثرة عنان
السماء، وهو السحاب.

وقيل ما انتهى إليه البصر منها .

وفي الرواية الأخرى (لو أخطأتم حتى بلغت خطاياكم
ما بين السماء والأرض ، ثم استغفرتم الله ، لغفر لكم)^(١)
والاستغفار: طلب المغفرة.

والمغفرة: هي وقاية شر الذنوب مع سترها .

وقد كثر في القرآن ذكر الاستغفار:

فتارة يؤمر به كقوله تعالى: ﴿واستغفروا الله إن الله
غفور رحيم﴾ ٢٠ - المزل

وقوله: ﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾ ٣ - هود

(١) مجمع الزوائد للهيثمي ٢١٥/١٠ عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - يقول: (والذي نفسي بيده - أو والذي نفس محمد بيده - لو
أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم ما بين السماء والأرض ، ثم استغفرتم الله لغفر لكم ،
والذي نفس محمد بيده - أو والذي نفسي بيده - لو لم تخطئوا لجاء الله - عز وجل
- بقوم يخطئون ثم يستغفرون فيغفر لهم) رواه أحمد وأبو يعلى ورجاله ثقات
الأحاديث المختارة ٣٧٨/٤ . مسند أبي يعلى ٢٢٦/٧ .

وتارة يمدح أهله ، كقوله تعالى: ﴿والمستغفرين
بالأسحار﴾ ١٧ - آل عمران

وقوله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا
أنفسهم ذكروا الله، فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب
إلا الله﴾ ١٣٥ - آل عمران

وتارة يذكر أن الله يغفر لمن استغفره ، كقوله تعالى:
﴿ومن يعمل سوء أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً
رحيماً﴾ ١١٠ - النساء.

قال ابن رجب: وكثيراً ما يقرن الاستغفار بذكر التوبة
فيكون الاستغفار حينئذ عبارة عن طلب المغفرة باللسان
والتوبة عبارة عن الإقلاع من الذنوب بالقلوب والجوارح.
وتارة يفرد الاستغفار، ويرتب عليه المغفرة ، كما ذكر
في هذا الحديث وما أشبهه، فقد قيل: إنه أريد به
الاستغفار المقترن بالتوبة.

وقيل: إن نصوص الاستغفار كلّها المفردة مطلقة ، تقيد
بما ذكر في آية آل عمران من عدم الإصرار ، فإن الله وعد
فيها بالمغفرة لمن استغفره من ذنوبه ، ولم يصر على فعله،
فتحمل النصوص المطلقة في الاستغفار كلها على هذا
القيّد، ومجرد قول القائل : اللهم اغفر لي طلب منه
للمغفرة، ودعاء بها، فيكون حكمه حكم سائر الدعاء، فإن
شاء الله أجابه وغفر لصاحبه ، لاسيما إذا خرج عن قلب

منكسر بالذنوب ، أو صادف ساعة من ساعات الإجابة،
كالأسحار وأدبار الصلوات.

ويروى عن لقمان أنه قال لابنه: يا بني عود لسانك:
اللهم اغفر لي ، فإن لله ساعات لا يرد فيها سائلاً.

وقال الحسن أكثروا من الاستغفار في بيوتكم ، وعلى
موائدكم، وفي طرقكم، وفي أسواقكم ، وفي مجالسكم،
وأينما كنتم، فإنكم ما تدرون متى تنزل المغفرة.

وعن مورق قال: كان رجل يعمل السيئات، فخرج إلى
البرية، فجمع تراباً، فاضطجع مستلقياً عليه ، فقال: ربي
اغفر لي ذنوبي فقال: (إن هذا ليعرف أن له رباً يغفر
ويعذب) فغفر له.

وعن مغيث بن سمي قال: (بينما رجل خبيث ، فتذكر
يوماً فقال: اللهم غفرانك اللهم غفرانك ، ثم مات فغفر له).
اهـ.

ويشهد لهذا ما في الصحيحين عن أبي هريرة عن
النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (إن عبداً أذنب فقال:
رب أذنبت ذنباً، فاغفر لي، قال الله تعالى: (علم عبدي أن
له رباً يغفر الذنب ، ويأخذ به ، غفرت لعبدي) ثم مكث ما
شاء الله، ثم أذنب ذنباً آخر ، فذكر مثل الأول ، مرتين
آخرين.

وفي رواية لمسلم أنه قال في الثالثة (قد غفرت لعبدي، فليعمل ما شاء) ^(١)

والمعنى ما دام على هذا الحال ، كلما أذنب استغفر ^(٢)

وهكذا نجد أن أصحاب الجنة نفعهم استغفارهم الله تعالى وندمهم وتوبتهم ، وانهم لم يصروا على تلك الخطيئة التي صدرت منهم ، وأصروا في وقتها على القيام بها ؛ لأن التوبة لا تنفع مع الإصرار على الذنب كما تقدم .

يقول البغوي في تفسيره :

قال أوسطهم أعدلهم وأعقلهم وأفضلهم: (ألم أقل لكم لولا تسبحون) هلا تستثنون أنكر عليهم ترك الإستثناء في قولهم: ﴿ليصرمنها مصبحين﴾.

وقيل: هلا تسبحون الله ، وتقولون سبحان الله ، وتشكرونه على ما أعطاكم .

(١) صحيح البخاري ٦٢٧٢٥ . وفي صحيح مسلم ٢١١٢/٤ عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما يحكي عن ربه - عز وجل - قال: (أذنب عبد ذنبا ، فقال : اللهم اغفر لي ذنبي ، فقال تبارك وتعالى: (أذنب عبدي ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب) ثم عاد فأذنب ، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: (عبدي أذنب ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب) ثم عاد فأذنب ، فقال : أي رب اغفر لي ذنبي ، فقال تبارك وتعالى (أذنب عبدي ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، أعمل ما شئت فقد غفرت لك) قال عبد الأعلى : لا أدري أقال في الثالثة أو الرابعة (اعمل ما شئت) . صحيح ابن حبان ٣٥٨/٢ . المستدرک للحاکم ٢٧٠/٢ . سنن البيهقي الكبرى ١٨٨/١٠ .

(٢) فتح الباري لابن حجر ٩٩/١١ . صحيح مسلم ٢١١٣/٤ . جامع العلوم والحكم لابن رجب ٢٣٨/٣ - ٢٣٩

وقيل : هلا تستغفرونه من فعلكم ؟ قالوا : (سبحان ربنا) نزهوه عن أن يكون ظالماً فيما فعل ، وأقروا على أنفسهم بالظلم ، فقالوا : (إنا كنا ظالمين) بمنعنا المساكين (فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون) يلوم بعضهم بعضاً في منع المساكين حقوقهم ، ونادوا على أنفسهم بالويل (قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين) في منعنا حق الفقراء.

وقال ابن كيسان: طغينا نعم الله ، فلم نشكرها ، ولم نصنع ما صنع آبؤنا من قبل ، ثم رجعوا إلى أنفسهم ، فقالوا : (عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون) قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه بلغني أن القوم أخلصوا ، وعرف الله منهم الصدق فأبدلهم بها جنة يقال لها الحيوان ، فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً واحداً^(١)

وقال البيضاوي : ﴿قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين﴾ متجاوزين حدود الله تعالى (عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها) ببركة التوبة ، والاعتراف بالخطيئة ، وقد روي أنهم أبدلوا خيراً منها^(٢)

فتوبة هؤلاء واستغفارهم ورجوعهم إلى الله تعالى كان السبب في توبة الله تعالى عليهم ، وأيضاً لعدم الإصرار على ذنبهم نفعهم كثيراً في تصحيح توبتهم وقبولها؛ لأن من المعلوم أن التوبة لا تكون صحيحة مع

(١) تفسير البغوي ٣ / ٣٨١-٣٨٢.

(٢) تفسير البيضاوي ٥ / ٣٧٣.

الإصرار على الذنب.

يقول ابن رجب الحنبلي في تعليقه على الحديث المتقدم الذي آخره (... فليعمل عبدي ما شاء) قال: والظاهر أن مراده الاستغفار المقرون بعدم الإصرار ، ولهذا في حديث أبي بكر الصديق عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: (ما أصر من استغفر ، وإن عاد في اليوم سبعين مرة)^(١)

والاستغفار باللسان مع إصرار القلب على الذنب ، فهو دعاء مجرد: إن شاء الله أجابه، وإن شاء رده.

وقد يكون الإصرار مانعاً من الإجابة ، وفي المسند من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً (ويل للذين يصرون على ما فعلوا وهم يعملون)^(٢)

وخرج ابن أبي الدنيا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً (التائب من الذنب كمن لا ذنب له،

(١) كشف الخفاء ٢٣١/٢ بين أن له شاهداً . سنن البيهقي الكبرى ١٠ / ١٨٨ . سنن أبي داود ٨٤/٢ . فتح الباري لابن حجر ١١٢/١ . تحفة الأخوذ للمباركفوري ٤٨٩/٥ . تفسير الطبري ٩٨/٤ . تفسير ابن كثير ٤٠٨/١ .

(٢) مسند الإمام أحمد ١٦٥/٢ . مجمع الزوائد للهيتمي ١٩١/١٠ . فتح الباري لابن حجر ١١٢/١ الترغيب والترهيب للمنذري ١٤٠/٣ . شعب الإيمان ٤٤٩/٥ .

(٣) سنن البيهقي الكبرى ١٥٤/١٠ . سنن ابن ماجه ١٤١٩/٢ . المعجم الكبير للطبراني ١٥٠/١٠ . الترغيب والترهيب للمنذري ٤٨/٤ . الفردوس بمأثور الخطاب ٧٧/٢ . فتح الباري لابن حجر ٤٧١/١٣ . فيض القدير ٢٧٦/٣ . مجمع الزوائد ٢٠٠/١٠ باب : التائب من الذنب كمن لا ذنب له : عن عبدالله بن مسعود عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ، إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه . اهـ.

(قلت) لم أجده مع قوله والمستغفر من ذنب الخ.

والمستغفر من ذنب - وهو مقيم عليه - كالمستهزئ بربه) ورفعه منكر ، ولعله موقوف.^(٣)

قال ابن رجب^(١) : قال الضحاك : ثلاثة لا يستجاب لهم: فذكر منهم رجلاً مقيماً على امرأة زناً ، قضى منها شهوته ، قال : رب اغفر لي ما أصبت من فلانة ، فيقول الرب: (تحول عنها وأغفر لك ، وأما ما دمت عليها مقيماً فأني لا أغفر لك ورجلاً عنده مال قوم يرى أهله ، فيقول: رب اغفر لي ما آكل من فلان ، فيقول تعالى: (رد إليهم ما لهم وأغفر لك ، وأما ما لم ترد إليهم ، فلا أغفر لك) وقول القائل: أستغفر الله: معناه أطلب مغفرته، فهو كقوله اللهم اغفر لي.

فالاستغفار التام الموجب للمغفرة هو ما قارن عدم الإصرار، كما مدح الله تعالى أهله ، ووعدهم بالمغفرة. قال بعض العارفين : من لم يكن ثمرة استغفاره تصحيح توبته، فهو كاذب في استغفاره.

وكان بعضهم يقول: استغفارنا هذا يحتاج إلى استغفار كثير^(٢) .

وفي ذلك يقول بعضهم :

أستغفر الله من أستغفر الله من لفظة بدرت خالفتُ معناها

(١) جامع العلوم والحكم ٣/٢٢٤.

(٢) لأنه قد يكون مع الغفلة .

وكيف أرجو إجابات الدعاء وقد سددت بالذنب عند الله مجراها
فأفضل الاستغفار ما قرن به ترك الإصرار ، وهو
حينئذ يؤمل توبة نصوحاً^(١)

وقال ابن كثير مبيناً ما للإصرار من أضرار ، ومعلقاً
على قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا
كُفْرًا لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ ٩٠ - آل عمران قال : أي لن تقبل
توبتهم وهم مقيمون على الكفر ، فسمهاها توبة غير
مقبولة؛ لأنه لم يصح من القوم عزم ، والله - عز وجل -
يقبل التوبة كلها إذا صح العزم^(٢)

وقد بين القرطبي الاختلاف في معنى قوله تعالى:
﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ ١٠٤ -
التوبة. وقوله ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ ٨٢ - طه.

فقال: فأخبره سبحانه وتعالى عن أشياء أوجبها على
نفسه يقتضي وجوب تلك الأشياء.

والعقيدة أنه لا يجب عليه شئ عقلاً ، فأما السمع
فظاهره قبول توبة التائب.

قال أبو المعالي وغيره: وهذه الظواهر إنما تعطى غلبة
ظن لا قطعاً على الله بقبول التوبة.

قال ابن عطية : وقد خولف أبو المعالي وغيره في هذا

(١) جامع العلوم والحكم ٢/ ٢٤٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ١٢١ .

المعنى، فإذا فرضنا رجلاً قد تاب توبة نصوحاً تامة الشروط، فقال أبو المعالي يغلب على الظن قبول توبته. وقال غيره: يقطع على الله تعالى بقبول توبته كما أخبر عن نفسه جل وعز.

قال ابن عطية: وكان أبي - رحمه الله - يميل إلى هذا القول ويرجحه، وبه أقول، والله تعالى أرحم بعباده من أن ينخرم في هذا التائب المفروض معنى قوله: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾ ٢٥- الشورى. وقوله تعالى: ﴿وإني لغفار﴾ ٨٢ - طه.

وإذا تقرر هذا فاعلم أن في قوله: ﴿على الله﴾ حذفاً وليس على ظاهره، وإنما المعنى على فضل الله ورحمته بعباده، وهذا نحو قوله صلى الله عليه وسلم: لمعاذ (أتدري ما حق العباد على الله؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: (أن يدخلهم الجنة)^(١) فهذا كله معناه: على فضله ورحمته بوعده الحق وقوله الصدق، دليله قوله تعالى: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ ١٢- الأنعام، أي وعد بها.

وقيل: ﴿على﴾ ها هنا معناها عند، والمعنى واحد، التقدير عند الله أي إنه وعد ولا خلف في وعده أنه يقبل

(١) مسند أحمد ٢٣٤/٥ عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال: كنت رديف النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال لي: (يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟) قلت: الله ورسوله أعلم. قال (يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم قال: (يدخلهم الجنة). مسند البزار ٩- ٣١٩/٧.

التوبة إذا كانت بشروطها المصححة لها ، وهي أربعة: الندم بالقلب، وترك المعصية في الحال ، والعزم على ألا يعود إلى مثلها، وأن يكون ذلك حياء من الله تعالى لا من غيره، فإذا اختل شرط من هذه الشروط لم تصح التوبة، وقد قيل من شروطها الإعتراف بالذنب وكثرة الإستغفار.^(١)

فعن أبي هريرة قال : ما رأيت أكثر استغفاراً من رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، وقال مكحول : ما رأيت أكثر استغفاراً من أبي هريرة. وكان مكحول كثير الاستغفار.

قال علماؤنا: الاستغفار المطلوب ، هو الذي يحل عُقد الإصرار ، ويثبت معناه في الجنان ، لا التلفظ باللسان ، فأما من قال بلسانه استغفر الله ، وقلبه مصر على معصيته فاستغفاره ذلك يحتاج إلى استغفار ، وصغيرته لاحقة بالكبائر.

وروي عن الحسن البصري أنه قال : استغفارنا يحتاج إلى استغفار.

قال القرطبي:

قلت هذا يقوله في زمانه ، فكيف في زماننا هذا الذي يَرى فيه الإنسان مُكِبّاً على الظلم ، حريصاً عليه ، لا يقطع ، والسبحة في يده ، زاعماً أنه يستغفر الله من ذنبه،

(١) تفسير القرطبي ٩١/٥.

وذلك استهزاء منه واستخفاف.

ثم قال: وفي التنزيل ﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾
٢٣١ - البقرة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ ١٣٥ - آل عمران. أي ليس أحد يغفر المعصية ، ولا يزيل عقوبتها إلا الله (ولم يصروا) أي ولم يثبتوا ويعزموا على ما فعلوا .

وقال مجاهد: أي ولم يمضوا .

وقال معبد بن صبيح : صليت خلف عثمان رضي الله عنه وعلي رضي الله عنه إلى جانبي، فأقبل علينا فقال: صليت بغير وضوء، ثم ذهب فتوضأ وصلى.

﴿ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ ١٣٥ - آل عمران.

الإصرار: هو العزم بالقلب على الأمر وترك الإقلاع عنه، ومنه صر الدنانير: أي الربط عليها .

وتقدم قول الحطيئة يصف الخيل:

عوابس بالشعث الكماة إذا ابتغوا علالتها بالمحصدات أصرت
أي ثبتت على عدوها .

وقول قتادة: الإصرار: الثبوت على المعاصي .

قال سهل بن عبد الله: الجاهل ميت، والناسي نائم،

والعاصي سكران، والمصر هالك. كما تقدم

والإصرار: هو التسويف، والتسويف أن يقول أتوب غداً، وهذا دعوى النفس، كيف يتوب غداً وغداً لا يملكه وقال غير سهل: الإصرار: هو أن ينوي ألا يتوب ، فإذا نوى التوبة النصوح خرج عن الإصرار.
وقول سهل أحسن.

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا توبة مع إصرار).

الثالثة: قال علماؤنا : الباعث على التوبة، وحلُّ الإصرار: إدامةُ الفكر في كتاب الله العزيز الغفار ، وما ذكره الله سبحانه من تفاصيل الجنة ، ووعد به المطيعين وما وصفه من عذاب النار ، وتهديد به العاصين ، ودام على ذلك حتى قوي خوفه ورجاؤه، فدعا الله رَغْباً ورَهْباً، والرغبة والرغبة: ثمرة الخوف والرجاء، يخاف من العقاب، ويرجو الثواب والله الموفق للصواب.

وقد قيل: إن الباعث على ذلك تنبيه إلهي ينبه به من أراد سعادته، لقبح الذنوب وضررها إذ هي سموم مهلكة.

قلت : وهذا خلاف في اللفظ لا في المعنى : فإن الإنسان لا يتفكر في وعد الله ووعيده إلا بتبنيه ، فإذا نظر العبد بتوفيق الله تعالى إلى نفسه ، فوجدها مشحونة

بذنوب اكتسبها ، وسيئات اقترفها ، وانبعث منه الندم على ما فرط ، وترك مثل ما سبق مخافة عقوبة الله تعالى ، صدق عليه أنه تائب ، فإن لم يكن كذلك ، كان مصراً على المعصية ، وملازماً لأسباب الهلكة .

قال سهل بن عبد الله : علامة التائب أن يشغله الذنب عن الطعام والشراب ، كالثلاثة الذين خلفوا .

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وهم يعلمون﴾

فيه أقوال:

ف قيل أي يذكرون ذنوبهم فيتوبون منها ، قال النحاس : وهذا قول حسن .

وقيل: ﴿وهم يعلمون﴾ أي أعاقب على الإصرار .

وقال عبد الله بن عبيد بن عمير: ﴿وهم يعلمون﴾ أنهم إن تابوا تاب الله عليهم .

وقيل: يعلمون أنهم إن استغفروا غفر لهم .

وقال ابن عباس، والحسن، ومقاتل ، والكلبي: ﴿وهم يعلمون﴾ أن الإصرار ضار، وأن تركه خير من التماسي .

وقال الحسن بن الفضل: ﴿وهم يعلمون﴾ أن لهم رباً يغفر الذنب .

قلت: وهذا أخذه من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما يحكى عن ربه عز وجل (قال: أذنّب عبد ذنباً، فقال: اللهم اغفر لي)

ذنبى، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً، يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب ، فقال: أي رب أغفر لي ذنبي) فذكر مثله مرتين ، وفي آخره (اعمل ما شئت فقد غفرت لك) أخرجہ مسلم.

وتقدم، وفيه دليل على صحة التوبة بعد نقضها بمعاودة الذنب ؛ لأن التوبة الأولى طاعة ، وقد انقضت وصحت ، وهو محتاج بعد واقعة الذنب الثاني إلى توبة أخرى مستأنفة ، والعود إلى الذنب - وإن كان أقبح من ابتدائه ؛ لأنه أضاف إلى الذنب نقض التوبة - فالعود إلى التوبة أحسن من ابتدائها ؛ لأنه أضاف إليها ملازمة الإلحاح بباب الكريم ، وأنه لا غافر للذنوب سواه ...

ودلت الآية والحديث على عظيم فائدة الاعتراف بالذنب والاستغفار منه قال صلى الله عليه وسلم: (إن العبد إذا اعترف بذنبه ، ثم تاب إلى الله ، تاب الله عليه) أخرجاه في الصحيحين^(١)

وقال:

يستوجب العفو الفتى إذا اعترف بما جنى من الذنوب واقرترف وقال آخر :

أقرر بذنبك ثم اطلب تجاوزه إن الجحود جحود الذنب ذنبان

(١) صحيح البخاري ٩٤٥/٢ . صحيح مسلم ٢٠٧٦/٤ . صحيح ابن حبان ٣٩٦/٣ . المستدرک للحاکم ٢٧١/٤ . الأحاديث المختارة ٤٣٦/٩ .

(٢) صحيح مسلم ٢١٠٦/٤ . مجمع الزوائد للهيثمى ٢١٥/١٠ . مسند الإمام أحمد ٢٧٩/١ .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده: لو لم تذبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون ، فيغفر لهم)^(١) وهذه فائدة اسم الله تعالى الغفار والتواب ، على ما بيناه في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى .
الخامسة: الذنوب التي يتاب منها: إما كفر، أو غيره فتوبة الكافر: إيمانه مع ندمه على ما سلف من كفره، وليس مجرد الإيمان نفسه توبة.

وغير الكفر: إما حق لله تعالى، وإما حق لغيره ، فحق الله تعالى يكفي في التوبة منه الترك ، غير أن منها ما لم يكتف الشرع فيها بمجرد الترك، بل أضاف إلى ذلك في بعضها قضاء كالصلاة والصوم، ومنها ما أضاف إليها كفارة ، كالحنث في الأيمان والظهار وغير ذلك.

وأما حقوق آدميين فلا بد من إيصالها إلى مستحقيها، فإن لم يوجدوا تصدق عنهم ، ومن لم يجد السبيل لخروج ما عليه لإعسار فغفو الله مأمول ، وفضله مبذول، فكم ضمن من التبعات ، وبذل من السيئات بالحسنات.

السابعة: في قوله تعالى: ﴿ولم يصروا﴾ حجة واضحة، ودلالة قاطعة لما قاله سيف السنة ولسان الأمة القاضي أبو بكر بن الطيب أن الإنسان يؤاخذ بما وطن عليه بضميره، وعزم عليه بقلبه من المعصية^(١)

وقد بين الإمام الطبري التوبة الصحيحة باختصار

(١) تفسير القرطبي ٤/ ٢١٠-٢١٣

فقال: أما التوبة: فأصلها الأوبة من مكروه إلى محبوب ، فتوبة العبد إلى ربه: أوبته مما يكرهه الله منه بالندم عليه، والإقلاع عنه، والعزم على ترك العود فيه ، وتوبة الرب على عبده عوده عليه بالعفو له عن جرمه ، والصفح له عن عقوبة ذنبه ، مغفرة له منه وتفضلاً عليه^(١)

وسئل ذو النون عن الاستغفار ؟ فقال : يا أخي الاستغفار اسم جامع لمعان ستة:

أولهن: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك الرجوع إلى الذنوب أبداً.

والثالث: إذا كان فرض ضيعته فيما بينك وبين الله عز وجل (فتداركه)

والرابع: أداء المظالم إلى المخلوقين في أموالهم وأعراضهم ويصالحهم^(٢) عليها.

والخامس: إذابة كل لحم ودم نبت من الحرام .

والسادس: إذاقة البدن ألم الطاعات كما ذاق حلاوة المعصية^(٣)

ومن هنا نعلم أن أصحاب الجنة قد تابوا التوبة الصحيحة وأنابوا إلى الله تعالى حق الإنابة ، فأبدلهم الله تعالى خيراً من جنتهم والله أعلم.

(وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم)

(والحمد لله رب العالمين)

(١) تفسير الطبري ٥٥٥/١

(٢) لعل الكلمة (أو) بدل الواو والله أعلم .

(٣) شعب الإيمان ٤٣٧/٥ .

الختامة

وفيهما بيان العبر والدروس المستفادة من هذه القصة

من خلال هذه الجولة تبين الآتي:

١- أن الله تعالى قص علينا قصة أصحاب الجنة في سورة (ن) وهي مكية ، وآياتها اثنتان وخمسون آية، وهي من أوائل ما نزل من القرآن الكريم.

٢- كان أهل مكة على علم بهذه القصة ، وأن الله تعالى ابتلاهم بالقحط والجوع ، كما ابتلى أصحاب الجنة.

٣- أن زمن هذه القصة كان في الفترة بين مبعث عيسى بن مريم ومبعث النبي - صلى الله عليهما وسلم - وكان مكان أحداث هذه القصة في اليمن في قرية يقال لها ضرعان.

٤- أن صاحب الجنة كان رجلاً صالحاً ، وكان يعطي المساكين من جنته ما يكفيهم.

٥- أن أولاد صاحب الجنة ورثوا عن أبيهم الصالح جنتهم ، فلم يسيروا كما سار أبوهم ، بل أقسموا وعزموا أمرهم على حرمان المساكين ، وحلفوا أن لا يستثثوا ، وبيتوا أمرهم على ذلك.

٦- أن تربية الوالد الصالح أثمرت ولو في بعض الأولاد حيث كان منهم من نهاهم عن عملهم المشين ، وقال لهم لولا تسبحون.

٧- كان ينبغي على الولد الذي نهاهم أن لا يمشي معهم حتى لا يؤاخذ بما فعلوا.

٨- نتيجة النية الفاسدة والعزم المصمم على حرمان المساكين، والإصرار على ذلك، أرسل الله تعالى على جنتهم ما أهلكها فأصبحت وكأنها لم تغن بالأمس.

٩- النية أساس كل عمل، وهي التي توجه العمل فتجعله لله أو لغير الله تعالى، وأن العمل لا يقبل إذا خالطه ما يجعله غير خالص لله تعالى، وقد دلت الأحاديث الكثيرة على ذلك، كما دل على ذلك أقوال العلماء.

١٠- أن الإنسان لا يؤاخذ على خطرات القلب، خاصة إذا كان صاحبها يدفعها، وإنما يؤاخذ على العزم على الفعل والتصميم عليه.

١١- ضرب الله تعالى لنا أمثلة كثيرة في القرآن الكريم على أن للنية المكانة العظيمة في قبول العمل أو رده، وقد أوردنا مثاليين للموعظة والعبرة:

أحدهما: قصة فريقين أنفقوا: فمنهم من كان ينفق ونيته فاسدة، ومنهم من ينفق ونيته حسنة، وبين الله تعالى نتيجة كل منهما، وثانيهما: قصة فريقين كل منهما بنى مسجداً والنية مختلفة، وبين الله تعالى نتيجة كل منهما.

١٢- أن التوبة والاستغفار سبب في رضا الله تعالى، وستر العقوبة ، وأن الله تعالى يبدل التائبين بخيراً إذا كانت توبتهم خالصة لله تعالى.

١٣- من فضل الله تعالى ولطفه بأصحاب الجنة أن بصرهم بذنوبهم ، فعادوا إلى الله تعالى ، وندموا على ما فعلوا، وقالوا: ﴿يا ويلنا إنا كنا طاغين عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون﴾ فأبدلهم الله تعالى بجنتهم المحترقة جنة خيراً من جنتهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

١٤- بعد هذه القصة بين الله تعالى أن هذا العذاب في الدنيا، وأن العذاب في الآخرة أكبر فقال: ﴿كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

أهم المراجع

- الأحاديث المختارة
أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي
المقدس المتوفى سنة (٦٤٣هـ)
حققه عبد الملك بن عبد الله بن دهيش
مكتبة النهضة المدينة المنورة ١٤١٠ هـ ط ١ .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم = تفسير
أبي السعود .
محمد بن محمد العمادي المتوفى سنة (٩٥١هـ)
دار إحياء التراث العربي بيروت .
- الاستيعاب في أسماء الأصحاب .
أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري المتوفى سنة
(٤٦٣هـ) مطبوع مع الإصابة .
- الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية .
عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي المتوفى
سنة (٩١١هـ) الطبعة الأخيرة ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م .
مصطفى الحلبي .
- الإصابة في تمييز الصحابة

أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة
(٨٥٢هـ) ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م. مكتبة الرياض الحديثة .
دار الفكر.

- الإكمال لابن ماكولا

علي بن هبة الله بن أبي نصر بن ماكولا المتوفى سنة
(٤٧٥هـ) ١٤١١هـ ط ١. دار الكتب العلمية بيروت

- البدء والتأريخ

مطهر بن طاهر المقدسي المتوفى سنة (٥٠٧هـ)
مكتبة الثقافة الدينية القاهرة .

- البداية والنهاية

عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير
المتوفى سنة (٧٧٤هـ)
ط ٢. ١٤١١هـ - ١٩٩٠م. مكتبة المعارف بيروت .

- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع

محمد بن علي بن محمد الشوكاني المتوفى سنة
(١٢٥٠هـ) دار المعرفة بيروت.

- تأريخ بغداد

أحمد بن علي الخطيب البغدادي المتوفى سنة (٤٦٣هـ)

دار الباز للتوزيع.

- تحفة الأحوزي

محمد بن عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري أبو
العلا المتوفى سنة (١٣٥٣هـ)
دار الكتب العلمية بيروت.

- الترغيب والترهيب

عبد العظيم عبد القوي المنذري أبو محمد المتوفى سنة
(٦٥٦هـ) حققه : إبراهيم شمس الدين
١٤١٧هـ ط١ . دار الكتب العلمية بيروت .

- التعريفات

علي بن محمد الشريف الجرجاني المتوفى سنة
(٨١٦هـ)
صححه جماعة من العلماء .
دار الباز مكة المكرمة .

- تفسير الألوسي = روح المعاني في تفسير القرآن
العظيم والسبع المثاني.

محمود شكري الألوسي أبو الثناء المتوفى سنة
(١٢٧٠هـ) دار إحياء التراث العربي بيروت.

- تفسير البغوي = معالم التنزيل .
الحسين بن مسعود الفراء البغوي أبو محمد المتوفى
سنة (٥١٦هـ)
حققه : خالد العك و . مروان سوار .
ط٢ . ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .
- تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل .
عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي أبو سعيد
المتوفى سنة (٦٨٥هـ)
حققه : عبد القادر عرفات العشا حسونة .
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .
- تفسير الشوكاني = فتح القدير الجامع بين فني الرواية
والدراية من علم التفسير .
تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن .
محمد بن جرير بن يزيد الطبري أبو جعفر المتوفى سنة
(٣١٠هـ) ١٤٠٥هـ دار الفكر بيروت .
- تفسير ابن كثير = تفسير القرآن العظيم
أبو الفداء : إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي
المتوفى سنة (٧٧٤هـ)
عيسى الحلبي .

- تفسير الواحدى = الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز .

- تقريب التهذيب .

أحمد بن على بن حجر العسقلانى المتوفى سنة
(٨٥٢هـ)

حققه وعلق حواشيه : عبد الوهاب عبد اللطيف
توزيع دار الباز مكة المكرمة .

- تلخيص الحبير

أحمد بن على بن حجر العسقلانى المتوفى سنة
(٨٥٢هـ)

حققه : السيد عبد الله هاشم اليماني المدني .
١٣٨٤هـ ١٩٦٤م . المدينة المنورة .

- التمهيد .

أبو عمر: يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري
المتوفى سنة (٤٦٣هـ)

حققه : مصطفى أحمد العلوي - محمد عبد الكبير
البكري .

١٣٨٧هـ وزارة عموم الأوقاف الإسلامية .

- تهذيب التهذيب .

أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة
(٨٥٢هـ) ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م. ط١ .
دار الفكر بيروت .

- توشيح الديباج وحلية الابتهاج .
محمد بن يحيى بدر الدين القرافي المتوفى سنة
(٩٦٤هـ) تحقيق وتقديم أحمد الشتيوي .
ط١ . ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م. دار الغرب الإسلامي .

- جامع العلوم والحكم .
أبو الفرج :عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي
المتوفى سنة (٧٥٠هـ)
ط١ . ١٤٠٨هـ دار المعرفة بيروت.

- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع
أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي أبو بكر
المتوفى سنة (٤٦٣هـ) حققه: محمود الطحان.
١٤٠٣هـ مكتبة المعارف الرياض.

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء .
أبو نعيم: أحمد بن عبد الله الأصفهاني المتوفى سنة
(٤٣٠هـ) دار الكتب العلمية بيروت

- خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال.
أحمد بن عبد الله الخزرجي الأنصاري اليمني المتوفى
سنة (٩٢٣هـ) قدم له : عبد الفتاح أبو غدة.
مكتب المطبوعات الإسلامية حلب .

- دائرة المعارف للناشئي.
فاطمة محجوب.
راجعته: د/ محمد خليفة بركات .
دار الهلال.

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور
عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي المتوفى
سنة (٩١١هـ)
١٩٩٣م. دار الفكر بيروت.

- الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب.
إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المتوفى
سنة (٧٩٩هـ) حققه: مأمون بن محيي الدين الجنان.
ط١. - ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
دار الكتب العلمية بيروت .

- زاد المسير في علم التفسير.

عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي المتوفى سنة
(٥٩٧هـ)

ط٣. ١٤٠هـ . المكتب الإسلامي بيروت .

- الزهد لابن المبارك

عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي أبو عبد الله
المتوفى سنة (١٨١هـ)

حققه : حبيب الأعظمي.

دار الكتب العلمية بيروت.

- سنن البيهقي = السنن الكبرى

أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي المتوفى سنة (٤٥٨هـ)
دار الفكر بيروت.

- سنن الترمذي = الجامع الصحيح

أبو عيسى : محمد بن عيسى بن سورة المتوفى سنة
(٣٧٩هـ) حققه أحمد محمد شاكر

دار إحياء التراث العربي.

- سنن الدارقطني.

علي بن عمر الدارقطني المتوفى سنة (٣٨٥هـ)
صححه السيد عبد الله هاشم يماني المدني

دار المحاسن للطباعة.

- سنن الدارمي.

عبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي الدارمي المتوفى
سنة (٢٥٥هـ).
دار الفكر بيروت.

- سنن أبي داود.

سليمان بن الأشعث السجستاني المتوفى سنة (٢٧٥هـ)
راجعه محمد محيي الدين عبد الحميد.
دار الفكر بيروت.

- سنن ابن ماجه.

أبو عبد الله: محمد بن يزيد القزويني المتوفى سنة (٢٧٣هـ)
حققه محمد مصطفى الأعظمي
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
الطبعة العربية السعودية.

- سنن النسائي.

أبو عبد الرحمن: أحمد بن علي بن شعيب النسائي
المتوفى سنة (٣٠٣هـ)
مطبوع مع شرح الجلال السيوطي

مكتبة عباس أحمد الباز ، مكة المكرمة
طبع دار الكتب العلمية بيروت.

- سنن النسائي المجتبى .

أحمد بن علي بن شعيب النسائي : أبو عبد الرحمن
المتوفى سنة (٣٠٣هـ)

حققه : عبد الفتاح ابو غدة .

ط٢ - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م . مكتب المطبوعات الإسلامية حلب .

- سير أعلام النبلاء .

شمس الدين : محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي
المتوفى سنة (٧٤٨هـ)

تحقيق : شعيب الإرنأؤوط - أكرم البوشي .

ط٢ - ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م . مؤسسة الرسالة .

- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية .

محمد محمد مخلوف .

دار الفكر بيروت .

شذرات الذهب في أخبار من ذهب .

عبد الحي بن أحمد العكبري الدمشقي المتوفى سنة

(١٠٨٦هـ) دار الكتب العلمية بيروت .

- شرح صحيح مسلم.
- أبو زكريا : محيي الدين يحيى بن شرف النووي المتوفى سنة (٦٧٦هـ) دار إحياء التراث العربي بيروت.
- شعب الإيمان
- أحمد بن الحسين البيهقي أبو بكر المتوفى سنة (٤٥٨هـ) حققه : محمد السعيد بسيوني زغلول ط ١ . ١٤١٠
- دار الكتب العلمية بيروت.
- صحيح البخاري.
- محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى سنة (٢٥٦هـ) المكتبة الإسلامية إسطنبول تركيا.
- صحيح ابن حبان.
- محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي أبو حاتم المتوفى سنة (٣٥٤هـ) حققه شعيب الإرنأؤوط ط ٢ / ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م. ، مؤسسة الرسالة.
- صحيح ابن خزيمة.
- أبو بكر : محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي المتوفى

سنة (٣١١هـ)

حققه / محمد مصطفى الأعظمي
ط ١٣٩١١هـ ١٩٧١م. الكتب الإسلامي.

- صحيح مسلم.

مسلم بن الحجاج النيسابوري المتوفى سنة (٢٦١هـ)
حققه محمد فؤاد عبد الباقي
المكتبة الفيصلية - مكة المكرمة.

- ضعفاء العقيلي

أبو جعفر : محمد بن عمر بن موسى العقيلي المتوفى
سنة (٢٢٢هـ).

حققه : عبد المعطي أمين قلعجي.
ط ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.
دار الكتب العلمية بيروت

- طبقات الحفاظ.

جلال الدين : عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي
المتوفى سنة (٩١١هـ) ط ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
دار الكتب العلمية بيروت.

- طبقات الشافعية الكبرى.

أبو نصر : عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي
المتوفى سنة (٧٧١هـ)

حققه : د/عبد الفتاح الحلو - د/محمود الطناحي .

- الطبقات الكبرى لابن سعد .

محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري أبو عبد الله
المتوفى سنة (٢٣٠هـ) دار صادر بيروت.

- طبقات المفسرين .

عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي المتوفى
سنة (٩١١هـ)

حققه : علي محمد عمر .

ط١ . ١٣٩٦هـ مكتبة وهبة القاهرة .

- عون المعبود .

محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب

ط٢ - ١٤١٥هـ

دار الكتب العلمية بيروت.

- فتح الباري .

أحمد بن علي بن حجر المتوفى سنة (٨٥٢هـ)

رقمه محمد فؤاد عبد الباقي

أخرجه محب الدين الخطيب

المطبعة السلفية.

- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير = تفسير الشوكاني.

محمد بن علي بن محمد الشوكاني المتوفى سنة (١٢٥٠هـ)

دار المعرفة بيروت.

- الفروق اللغوية.

الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري المتوفى سنة (٣٩٥هـ) تحقيق حسام الدين المقدسي

١٤١١هـ - ١٩٨١م. دار الباز - مكة المكرمة.

- الفهرست لابن النديم.

محمد بن إسحاق النديم أبو الفرج المتوفى سنة (٣٨٥هـ) دار الباز مكة المكرمة.

- الفوائد البهية في تراجم الحنفية.

أبو الحسنات : محمد عبد الحي اللكنوي المتوفى سنة (١٣٠٤هـ) نور محمد كارخانة تجارت كتب كراچي.

- فيض القدير.

عبد الرؤوف المناوي المتوفى سنة (١٠٣١هـ)

ط ١. ١٣٥٦هـ المكتبة التجارية الكبرى - مصر.

- في ظلال القرآن.
سيد قطب المتوفى سنة (١٣٨٦هـ) دار الشروق.
- الكامل في التاريخ.
محمد بن محمد بن عبد الواحد الشيباني المتوفى سنة (٦٣٠هـ) حققه : أبو الفداء عبد الله القاضي.
ط٢. ١٤١٥هـ - ١٩٩٠م.
دار الكتب العلمية بيروت
- لسان الميزان.
أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة (٨٥٢هـ)
ط٣. ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
دائرة المعارف النظامية - الهند .
- مجمع الزوائد.
علي بن أبي بكر الهيثمي المتوفى سنة (٨٠٧هـ)
١٤٠٧هـ دار الريان القاهرة.
- المحلى.
أبو محمد : علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي

المتوفى سنة (٤٥٦هـ)

قوبلت على نسخة حققها أحمد محمد شاكر
دار الفكر بيروت.

- المستدرك على الصحيحين.

محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري المتوفى سنة
(٤٠٥هـ)

حققه : مصطفى عبد القادر عطا
ط ١ . ١٤١١ هـ ١٩٩٠ م . دار الكتب العلمية بيروت.

- المسند .

الإمام أحمد بن محمد بن حنبل المتوفى سنة (٢٤١هـ)
ط ٥ . ١٣٩٨ هـ المكتب الإسلامي بيروت .

- مسند أبي يعلى .

أحمد بن علي بن المثنى الموصلي التميمي المتوفى سنة
(٢٠٧هـ) حققه : حسين سليم أحمد .
ط ١ . ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م .
دار المأمون للتراث - دمشق.

- مسند البزار .

أبو بكر : بن عمرو بن عبد الخالق البزار المتوفى سنة

(٢٩٣هـ) حققه : محفوظ الرحمن زين الله .
ط١ . ١٤٠٩هـ مؤسسة علوم القرآن - بيروت .

- مسند الشهاب .

محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي أبو عبد الله
المتوفى سنة (٤٥٤هـ) حققه : حمدي عبد المجيد السلفي .
ط٢ . ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .
مؤسسة الرسالة بيروت .

- مصباح الزجاجة .

أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل الكناني المتوفى سنة
(٨٤٠هـ) ط٢ . ١٤٠٣هـ دار العربية بيروت .

- المصباح المنير في شرح غريب الشرح الكبير للرافعي .
أحمد بن محمد بن علي الحموي الفيومي أبو العباس
المتوفى سنة (٧٧٠هـ)
صححه مصطفى الزرقاء
دار الفكر بيروت .

- المصنف لابن أبي شيبة .

عبد الله بن محمد العبسي المتوفى سنة (٢٣٥هـ)
طبعة لاهور

- المصنف لعبد الرزاق.
- عبد الرزاق بن همام أبو بكر الصنعاني المتوفى سنة (٢١١هـ) .
- عني به الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي
- منشورات المجلس العلمي.
- معاصر المختصر.
- يوسف بن موسى الحنبلي أبو المحاسن
- عالم الكتب - مكتبة المثنى ، بيروت القاهرة.
- معجم البلدان.
- ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله المتوفى سنة (٦٢٦هـ)
- دار الفكر بيروت.
- معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية .
- د/ عبد الرحمن عبد المنعم.
- دار الفضيلة.
- المعجم الكبير.
- سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني أبو القاسم المتوفى سنة (٣٦٠هـ)

حققه حمدي عبد المجيد السلفي.

ط٢ . ١٤٠٤ هـ ١٩٨٣ م.

مكتبة العلوم والحكم الموصل.

- المقاييس في اللغة.

أحمد بن فارس المتوفى سنة (٣٩٥هـ)

حققه شهاب الدين أبو عمرو .

ط١ . ١٤١٥ هـ ١٩٩٤ م. دار الفكر بيروت.

- موارد الضمان.

علي بن أبي بكر الهيثمي أبو الحسن المتوفى سنة

(٨٠٧هـ) حققه: محمد عبد الرزاق حمزة

دار الكتب العلمية بيروت

- الناسخ والمنسوخ . في القرآن الكريم.

علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد

الأندلسي المتوفى سنة (٤٥٦هـ)

حققه : د/ عبد الغفار سليمان البغدادي.

١٤٠٦ هـ دار الكتب العلمية بيروت.

- الناسخ والمنسوخ للكرمي = قلائد المرجان في بيان

الناسخ والمنسوخ في القرآن.

مرعي بن يوسف بن أبي بكر الكرمي المتوفى سنة

(١٠٣٣هـ) حققه: سامي عطا حسن
١٤٠٠هـ دار القرآن الكريم الكويت.

- الناسخ والمنسوخ للمقري.
- هبة الله بن سلامة بن نصر المقري المتوفى سنة (٤١٠هـ) حققه: زهير الشاويش - محمد كنعان.
ط ١ . ١٤٠٤هـ، المكتب الإسلامي بيروت.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .
جمال الدين : أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي
المتوفى سنة (٨٧٤هـ) المؤسسة المصرية العامة للتأليف.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب .
أحمد بن محمد المقري التلمساني .
حققه : د/ إحسان عباس، دار صادر بيروت.
- النهاية في غريب الحديث والأثر .
أبو السعادات: المبارك بن محمد الجزري المتوفى سنة (٦٠٦هـ) حققه: محمود محمد الطناحي .
المكتبة الإسلامية.
- نوارد الأصول في أحاديث الرسول .
محمد بن علي بن الحسن أبو عبد الله الحكيم الترمذي

- حققه : عبد الرحمن عميرة.
- ط ١. ١٩٩٢م. دار الجيل بيروت.
- النية وأثرها في الأحكام الشرعية.
- د/ صالح بن غانم السدلان.
- ط ٢ - ١٤١٤هـ. دار عالم الكتب الرياض.
- نيل الأوطار وشرح منتقى الأخبار.
- محمد بن علي بن محمد الشوكاني المتوفى سنة (١٢٥٠هـ) الطبعة الأخيرة، مصطفى الحلبي.
- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز = تفسير الواحدي.
- علي بن أحمد الواحدي أبو الحسن المتوفى سنة (٤٦٨هـ) حققه: صفوان عدنان داوودي
- ط ١. ١٤١٥هـ - دار القلم دمشق.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.
- شمس الدين: أحمد بن محمد البرمكي الأربلي المتوفى سنة (٦٨١م)

حققه: د/ إحسان عباس.

١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م. دار صادر بيروت.

في هذا الكتاب

يبين هذا الكتاب ما للنية من قيمة في الشرائع السابقة وفي الإسلام، وقد ضرب الله تعالى لنا أمثلة في القرآن الكريم تبين ما للنية من أثر طيب أو سيئ: من ذلكم الأعراب الذين أنفقوا وهم يرون أن هذه النفقة هي مغرم ويتريصون بالمؤمنين الدوائر، ومنهم من يرى ما ينفق قريبات عند الله وصلوات الرسول، فقال عن الأولين عليهم دائرة السوء، وقال عن الآخرين ألا إنها هبة لهم سيدخلهم الله في رحمته، ومن ذلك أيضاً الذين بنوا مسجداً ضراراً وكفراً وتضيقاً بين المؤمنين، والذين بنوا مسجداً على التقوى من أول يوم، وقد قص الله تعالى علينا قصة أصحاب الجنة وبين كيف أراد هؤلاء حرمان المساكين وكيف عاقبهم الله تعالى فطاف عليها طائف من ربه وهم نائمون؛ لتكون للناس عبرة فلا يمنعون حق الفقراء والمساكين، وتبين القصة أن هذا عذاب الدنيا وأن عذاب الآخرة أكبر، ثم تبين أحداث القصة كيف أن الله تعالى أبدلهم خيراً منها لما رجعوا إلى الله تعالى.